غي فيّ



الطّيور البُنيّة المهاجرة



الترجمة عن الصينية: يارا المصري

الطُّيور البُنِّيَّةُ المُهاجرة

قصص

غِيْ فِيّ

الترجمة عن الصينية: يارا المصري

الطُّيور البُنِّيَّةُ المُهاجرة

الطيور البنيّة المهاجرة

تأليف: غِيْ فِيّ
الترجمة عن الصينية: يارا المصري

الترقيم الدولي (ISBN): 978-9948-81-279-1

روايات
REWAYAT

إصدارات روايات (إحدى شركات مجموعة كلمات)
الطبعة الأولى 2023

القصباء - مبنى D
هاتف: 5566696 6 971+ فاكس: 5566691 6 971+
ص. ب. 21969 الشارقة، الإمارات العربية المتحدة
info@kalimat.ae
www.kalimatgroup.ae

تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقًا لنظام
التصنيف العمري الصادر عن وزارة الثقافة والشباب
المرجع: MC-10-01-2046161
الفئة العمرية: جميع الفئات العمرية

يتضمن هذا الكتاب ترجمة الأصل باللغة الصينية
Flock of Brown Birds (格非小说选)
BY Liu Yong (Ge Fei) /刘勇（格非）

BNUP

مجموعة كلمات
KALIMAT GROUP

المحتويات

مقدمة

"غِيْ فِيّ".. الكتابةُ والحريةُ المُطلَقة

هل تستطيع أن تكتبَ رواية؟

في مقالٍ له بعنوان "ابتلاعُ المصير" يروى الكاتب "تجانغ يوي" قصةً على لسانِ "غِيْ فِيّ"، إذ كان الأخير قد أحرز تقدماً عندما أوشكَ على التخرج العام 1985، وحينما ذهب إلى مقاطعة جيجيانغ لامتحان اللهجات، عاد برفقةِ إحدى المعلمات في رحلةٍ طويلةٍ مدتها إثني عشرة ساعة، من مدينة جيان دي في جيجيانغ إلى شانغهاي، وقد سألته المعلمة: سمعتُ أنَّك تكتبُ الروايات، هل تستطيع أن تكتبَ روايةً حقّاً؟

- أجل.

- إِذَن هل تستطيع أن تكتبَ لي قصةً خلال اثنتي عشرة ساعة؟

عربة القطار مكدسة بالركاب لدرجة الاختناق، ثمة أقفاص دجاج، والكثير من الضوضاء، والروائح المتداخلة. والوقت يمضي بصعوبة. لذا

فكَّر "غِيْ فِيّ": من الأفضل أن أكتب قصةً مضحكة. وهكذا تحرَّرَ من الالتزام بموضوعٍ للقصة، وكتب حكايةً عن رجلٍ يُدعى السيد "وو يو"، كتب عدةَ جُمَلٍ غير مفهومة، لأجل أن يُصَعِّبَ القراءة على الطرف الآخر، ويجعله يعاني في محاولته لحلِّ اللغز.

"تذكَّرَ الناسُ السيد "وو يو" على مضض، حين جاءَ إلى القريةِ رجلان متوسطا العمرِ في زي الشرطة وفتاةٌ ترتدي تنورة، وأوقعَ ذلك الحدثُ القديمُ أثراً في النفس كالأثرِ الذي يُوقعه فقدُ العذريةِ على فتاة."

هكذا بدأ، وبعد أن كتب ثلاثةَ أو أربعةَ آلافِ كلمة في دفتره، رفع "غِيْ فِيّ" رأسه ونظر إلى المعلمة، وتوقَّع أن تسأله "هل انتهيت؟"، لكن ربما بسبب الوقت الطويل، نسيت المعلمة ذلك تماماً، وبدأت تتحدث معه في مواضيع أخرى. بدا "غِيْ فِيّ" مُحرجاً من ذِكرِ الأمرِ مرَّةً أخرى، فوضع الدفترَ في جيبه إلى أن غادر القطار ولم يُخرجه بعد ذلك.

نشرَ "غِيْ فِيّ" عملَه الأول "ذكرى السيد وو يو" العام 1986 في مجلة "الصين"، وهي إحدى القصص المترجمة في هذا الكتاب، وقد فوجئَ "وانغ تشونغ شين" محررُ المجلةِ عندما قرأَ القصة. وقال إنَّها لا تشبه عملَ شابٍ يبلغ من العمر 21 عاماً: "أسلوبه السردي أفضل من مستوى الكتابِ الأكثرِ شهرةً في ذلك الوقت".

على أنَّ القصة التي ساهمت في شهرته، هي "القاربُ الضائع" التي نُشرت العام 1987. وفي العام 1988 نشر نوفيلا بعنوان "الطُّيورُ البُنِّيَّة المهاجرة"، والتي عُدَّت في السابق واحدةً من أكثر النصوص غموضاً في الأدب الصيني المعاصر، وهي كذلك من الأعمال التي تُذكَرُ عند الحديث عن تيار الأدب الطليعي في الصين.

تشينغ هوانغ - الأصفر المائل إلى الخضرة:

للكاتب "غِيْ فِيّ" مقالٌ بعنوان "كِدتُ أن أصبح نجاراً"، وهي سيرة ذاتية صغيرة، عن "هؤلاء الذين امتلكوا عزيمةً قوية"، عن أحد الأشخاص الذين أثَّروا بشكل ما في نظرته للكتابة والإبداع. يقولُ في مقاله:

"عندما كنت في الجامعة، عدت برفقة حبيبتي إلى مسقط رأسي، فاصطحبني جدي لزيارة أحد الأشخاص الذين يبجلهم ويحترمهم بشدة، اسمه "تجونغ يوه لوه". لم يأخذني لزيارته من قبل، لأن هذا الرجل شديد الذكاء، واسع المعرفة والاطلاع، يجيدُ كتابةَ الشعرِ والمقالات، وماهرٌ في فن الخط. ألفَّ كتاباً حول "حُلْمِ المقصورةِ الحمراء"، ونشر عدةَ كتبٍ شعرية ومقالات. قال لي جدي، إنْ تجاهلَك فهذا أمرٌ طبيعي". ثم أردف الكاتب: "... ثم كتب لي بطريقةٍ ما رسالة، ووصفني بـ"الفاضل"، جاء في الرسالة: "أنت تدرسُ الأدب، ويجب أن تكون مهاراتُك الكتابية جيدةً جداً، اكتب بعض القصائد لأقرأها". والنتيجة أنَّه وبَّخني بعد قراءةِ القصائد، ثم ألحق برسالته بعض آرائه عن الأدب: "بشكلٍ عام، كما ترى، على صفحة النهر العظيم، الريحُ سريعةٌ والسماءُ عالية، فقط عندما يتدفق النهر يمكن أن تكون هناك أمواج عالية. إذا رغبت في أن تعيش حياة آمنة ومطمئنة، فمن الأفضل ألَّا تنخرط في الأدب". ومع أنَّ منطقه شديدُ البساطة، لكنه ترك في نفسي أثراً عميقاً. إذ ظلَّ يراسلني إلى أن توفي فجأة.

كان لديه صديقٌ لقبهُ "تسون"، طالبٌ مثله كذلك عند والده. كان كلاهما يفهمُ الآخرَ ويؤازرُه، في أيامِ الثورةِ الثقافيةِ الكئيبةِ التي تخيِّمُ عليها الوحدة. ذاتَ يومٍ، كتب "تسون" إلى "تجونغ يوه لوه" رسالة: "قررتُ الانتحار! هل بوسعك أن تكتبَ لي مرثيةً أولاً؟"، كنا سنقول نحن الجهلة: "لِمَ لم تثنِه

عن الانتحار؟". ردَّ "تجونغ يوه لوه" قائلاً: "ما دام قال إنَّه يريدُ الموت، إذَن فلديه أسبابه، ولا أستطيع منعه". واقتبسَ جملةً من كتاب "شانغ شو - كتابُ الوثائق": "ابحثْ عن شَبَهِك، ابحثْ عن الصوت ذاتِه". وقد انتحرَ "تسون" بعد تلقيه رسالة "تجونغ يوه لوه" الذي لم يمضِ وقتٌ طويلٌ حتى توفي."

يضيف "غِيْ فِيّ" في مقاله:

"لا يزالُ بإمكاني أن أرى العزيمةَ القويةَ الذي يتمتع بها هؤلاء الأشخاص، وقوةَ تحمّلِهم وسلوكِهم. كان التقليدُ القديمُ مخبأً داخلهم، ولا يمكن لأي أحدٍ تغييره. وهذا التقليدُ مختلفٌ تماماً عمَّا نتقبله الآن. وروايتي القصيرة "تشينغ هوانغ - الأصفرُ المائلُ إلى الخضرة" مهداةٌ إلى "جونغ يوه لوه".

الانتصارُ على الطبيعة:

إن كان أشخاصٌ مثل "جونغ يوه لوه" و"تسون" قد أثَّروا في نظرة "غِيْ فِيّ" للكتابةِ والإبداع، فماذا عن نظرتِه هو للكتابةِ الروائيةِ والقصصية؟ يقول في حوارٍ معه:

"نتحدثُ في العادة عن الأبعادِ المكانيةِ الثلاثة، بالإضافةِ إلى بُعدٍ زمني واحد، إذَن هي أربعةُ أبعاد. كانت ثمة فكرة تراودني لفترة طويلة، وهي أنَّ البُعدَ الأرجحَ الذي يمنحنا مغزىً هو البعدُ الزمني، ولا أعني بذلك أنَّ البُعد المكاني لا أهمية له، بالطبع له أهمية، لأننا في حالةٍ مستمرةٍ من الانتصارِ على الطبيعة، في حالةٍ مستمرةٍ من ابتكارِ الأشياء، وفي حالةٍ مستمرةٍ من إطالةِ بقائنا. لذا في حدودٍ كهذه، فإنَّ كلَّ هذه الجهودِ هي تغيراتٌ زمنية، على أنَّ هذه التغيرات في الماضي كانت تخدمُ شيئاً ما، كمعنى الإنسانِ على سبيلِ المثال.

إذَن، أصبحت فكرةً كهذه الفكرة، خلال السنوات الأخيرة، أكثرَ أهمية؛ أي أنَّ العلاقة المتزنة بين الزمان والمكان قد حُطِّمت، وأنَّ الكثير من الناس، شيئاً فشيئاً، يؤكدون على المكان لنفي هذا الزمن، إلى أن اختفى الزمن الأدبي. لا يوجد زمنٌ في الفيلم، فهو مجموعةٌ من الصور التي صُوِّرَت في شكلٍ مكاني، تتحرك من خلال حركة جهاز العرض، إلى أن تندمج هذه الصور والرسومات معاً، وتشكل وهماً أنَّ الوقت يتدفق. هكذا تُصنَعُ الأفلام، صُوَرٌ تُلتَقطُ واحدةً تلو الأخرى. إذَن، هل يمكن للرواية أن تُخلَقَ هكذا؟ أجل، يمكن للرواية أن تُخلَقْ هكذا"[1].

البحثُ عن طريقٍ في الظلام:

يُذكَرُ اسمُ الكاتب "غِيْ فِيّ" من بين أهم الكتاب والمؤسسين لما يُعرف بتيار "أدب الطليعة" الذي ظهر في ثمانينات القرن الماضي بعد انتهاء الثورة الثقافية في الصين. ومن أهم أعماله: "عباءةُ التخفِّي/ رواية"، "نسيمُ الربيع/ رواية"، "ثلاثيةُ جنوبِ اليانغستي/ رواية 3 أجزاء"، "اللقاء/ مجموعة روايات".

اسمه الحقيقي "ليو يونغ ـ Liu Yong"، وُلِدَ في العام 1964 في مدينة دان تو في مقاطعة جيانغسو. وفي العام 1981 قُبِلَ في قسم اللغة الصينية في جامعة هوا دونغ للمعلمين في شانغهاي، وعمل أستاذاً هناك بعد تخرجه. حصل على الدكتوراه في الأدب العام 2000، ونُقِلَ في العام ذاته إلى قسم

(1) ما يقصده الكاتب، أنَّ الشريط السينمائي مكوَّن من لقطات ثابتة "24 لقطةٍ الثانية" وحين تحريك الشريط، ينتجُ من تتالي الصور إيهامٌ بالحركة والزمن، ويرى حسب قناعتِه أنَّ الرواية يمكن أن تُكتَب بهذه التقنية للتصوير السينمائي. (جميعُ الهوامشِ في الكتاب من وَضعِ المترجمة).

اللغة الصينية في جامعة تشينهوا، حيث يعمل الآن أستاذاً لتدريس الكتابة، والسرد، والسينما الأوروبية وغيرها.

وبين النضجِ والحريةِ يرى الكاتب "غِيْ فِيّ" مسارَ الكتابةِ في حياة أي كاتب، ويقول في حوارٍ معه:

{إنَّ إدراكك ورؤيتك ونظرتك للعالم مهمةٌ للغاية. لا جدوى من تدريبِ كاتبٍ ليس لديه نظرةٌ تجاهَ العالم. وهذه العمليةُ تستغرقُ وقتًا طويلاً لتتراكم، وتنطوي على حياتِك الشخصيةِ وتجربتِك. ومن المهم أيضاً أن تكون جاداً وصارماً تجاه الحياة. يقضي بعضُ الناس حياتَهم في عَجَلٍ، من دون تفكير، ومن دون إعطاء فرصة لتنضج الأفكار.}

{وأعتقدُ أنَّ أول شيء يجب فعله هو نبذُ الأوهامِ والتفكيرِ الأعمى. لا تفكِّرْ في مدى عظمةِ هؤلاء الكتاب، يمكنك أيضاً أن تصبح كاتباً عظيماً. لكلِّ شخصٍ موهبتُه الخاصة.}

{نحن بحاجة إلى تحريرِ عقولنا. يخافُ الأشخاصُ الذين يكتبون أحياناً، ويشعرون أنَّهم ليسوا جيدين بما فيه الكفاية، وأنَّ مفرداتهم قليلة، وأنَّ خيالهم ليس جيداً بما يكفي، وأنهم يفتقرون إلى المهارة. ستكون في هذا الوقت مقيداً، تضغطُ عليك عوائق ثقيلة كجبل، ولن يكون بمقدروك الكتابة. لذلك أعتقد أنَّ الخطوةَ الأولى في الكتابة هي تدريبُ نفسِك. بمجرد أن تبدأ في الكتابة، يجب أن تكون في حالةٍ من الحرِيةِ المُطلَقَة.}

{عندما يبدأ الكاتبُ الكتابةَ على جهاز الكمبيوتر أو الورق، فإنَّه يحتاج إلى بذل قصارى جهده، والدخول إلى منطقةٍ جديدة، والتي تشبه، إلى حدٍّ ما، البحثَ عن طريقٍ في الظلام.} ...

من مغامرتِه في الكتابة، هذا الكتاب الذي يضمُ خمسَ قصصٍ طويلةٍ من إبداعِه، وآملُ أن يجدَ فيها القارئُ العربيُّ أفقاً لإحدى التجاربِ الطليعيةِ الهامة في الأدبِ الصيني المعاصر.

يارا المصري

28 مارس 2021

الطُّيورُ البُنِّيَّةُ المهاجرة

كسفينةٍ ضخمة دُفِعَ هذا الفصلُ من السنةِ إلى الشاطئ، وبدا الغروبُ وهبوطُ الليلِ كخطواتِ جَدِّي، خطوةٌ تحلُّ محلَّ الأخرى. أعيشُ في عزلةٍ في منطقةٍ تُسمَّى "ضِفةُ الماء"، وأكتبُ كتاباً يماثلُ كتابَ سِفْرِ يوحنا. أودُّ أن أهديه إلى حبيبتي السابقة، والتي لفرطِ تأثرِها بحفلة عيد ميلادها الثلاثين على ضوء الشموع، فقد توفيت بسبب نزيف في المخ، ولم أرَها بعد ذلك.

بدَت منطقةُ ضِفّةِ الماءِ مثلما أصفُها في القصةِ هنا، سماؤها صافيةٌ مشرقةٌ كلَّ يوم، وبوسعك أن ترى أشعةَ الشمسِ بوضوح. وحين أجلسُ عند النافذةِ أستطيعُ رؤيةَ الحصى الملوّنِ في قاعِ الماء، والسنابلَ البيضاءَ الهشَّة، والكائناتِ الدقيقةَ التي تشبه العثَّة، لكنِّي كنتُ عاجزاً عن تمييزِ تغيُّرِ الفصول.

كنتُ أكتشفُ كلَّ يومٍ طبقةً من الجليدِ تكسو قرميدَ السطحِ الأسود، وكان هذا الجليدُ يذوبُ في شمس منتصفِ الظهيرة حين تشتدُّ حرارتُها تدريجياً لتتساقطُ قطراتُ الماءِ من إفريزِ السطح. لم تُثلج من قبل في هذه المنطقة، كما أنَّ هناك ظواهرَ غريبة بِتُّ ألاحظُها في عتمةِ الليل، كالحركةِ المنتظمةِ لشهاب، أو تحوّل القمر إلى شكلِ ثمرةِ كرزٍ غيرِ متناسقةٍ، وظواهرِ

أخرى. وخطرَ لي أنه إن لم تكن ذاكرتي محجوبة، فإنّ ثمة فعلاً انحرافُ في الزمن. لحسنِ الحظ، يمرُّ كلَّ يومٍ سربُ طيورٍ بُنّيةٍ مهاجرة، يمكنني وفقاً لاتجاهِها - جنوباً أم شمالاً - أن أخمِّنَ تخميناً مبهمًا تغيُّرَ الفصول، تماماً مثل ذكرى طبيبٍ قال لي مرّة: "الدمُ علامةُ الإصابة"، لذا أعتقدُ أنَّ الطُّيورَ المهاجرةَ علامةُ تغيُّرِ الفصول.

أكتبُ ببطءٍ شديدٍ لخشيتي اختفاء الطُّيورِ البُنّيةِ المهاجرة يومًا ما، إذ رأيتُ أنَّ الزمنَ سيتلاشى باختفائِها. قلقي ذاك وتنبُّهي إليها يشتّتاني عن الكتابة، ويحرماني السعادةَ التي أشعرُ بها غامرةً حينما أكتبُ في سكونٍ وهدوءِ بال. شككْتُ فيما بعد أنَّني أهَلْوِس؛ كان ثمة أصواتٌ تُرجِّعُ صدىً أجوفَ ومُبهماً في أُذني، ولا أظنُّ أنَّها أجنحةِ الطُّيورِ المشرعةِ مثل صَفيرِها الطويلِ حين تضربُ الهواءَ لدى اقترابِها، بل تناهت كأصواتٍ قادمةٍ من محطةِ حافلاتٍ مزدحمة، أو من مقبرةٍ مهيبة، تصادَت مثل تساقطِ الثلجِ أو تطايرِ الرمال.

ذات يومٍ جاءت إلى منزلي امرأةٌ ترتدي ملابسَ بلونٍ أحمر برتقالي "أو ربما بُنِّيٍّ مُحمَرّ". كانت تسيرُ بسرعةٍ حذاءَ الشاطئِ الحجري الضَّحل، في البدايةِ ظننتُها مجرّدَ شخصٍ عابر، لكنها عندما التفتت نحوي وهي تقفُ أمامَ منزلي تبيَّنتُ وجهَها الصافي بوضوحٍ تامٍ في ضوءِ الشمس. فكَّرتُ، ربما هي امرأةٌ شابة. كانت تحملُ بين ذراعيها ملفاً كبيراً يشبه مغلَّفاتِ لوحاتِ الرسم أو المرايا، وحين نزعتْ الغلافَ القماشيَّ الأخضرَ وطلبت مني تفحُّصَه بعناية، تأكدتُ أنه مغلَّفُ لوحاتٍ وليس مرآة.

لمَ أستقبل ضيوفاً من قبل. وعندما قابلتني لم تتبع السلوكَ الشائع للقاء غريبَين، بل تعاملتْ بدفءٍ وحميميةٍ كأنها زوجتي. قالت إنَّ اسمها تشي. وقالت عَرَضاً وهي تُريني مغلَّفَ اللوحات إننا الآن في فصل الخريف.

ارتعشت ذاكرتي بألم، لكنني لم أستدعِ أيَّ ذكريات. كنت سعيداً بفصل الخريف. بدا صدرُها وهي تتحدث معي أمامَ باب منزلي وكأنَّ كيسين دافئين ممتلئين بماءٍ أو بعصيرِ ليمونٍ يتدليان منه، وبعثَ جَيبا المعطفِ الأبيضَين الدفءَ في نفسي. فوَّتتْ عليَّ رؤيةُ تشي للمرةِ الأولى مراقبةَ الطُّيورِ المهاجرة، وخطر ببالي أنها حلّقت بعيداً أثناء حديثي معها، وحين تخطَّت نظراتي العابثةُ كتفيها إلى أفقِ الماءِ الأزرقِ البعيدِ سألتني: إلامَ تنظر؟

تلك الطُّيورُ المهاجرة...

ألقتْ نظرةً تجاه شاطئ الحصى ثم عادت ونظرت إليَّ ببراءةٍ وفطنة.

دعوتُ تشي للدخول وجلسنا على مقعدين نتفرج على اللوحاتِ التي بحوزتها. كانت بورتريهاتٍ لبعض النساء تشبهها في البِنيةِ والملامح، بورتريهاتٍ بالفعلِ لها: تتكئُ على عامودِ كهرباءٍ وأمامها تمتدُّ صحراءُ جوبي الشاسعة، أو تستلقي على شاطئٍ بملابسَ صيفية، ورسوماتٌ لأوراقِ شجرٍ متساقطٍ في حديقة، وهي مستلقيةٌ على بطنِها وترفعُ ساقيها النحيلتين إلى جانبِ دربٍ متعرِّجٍ مغطىً بأوراقِ الشجرِ الكثيفة.

استرخى الكيسان الدافئان على يدي حين كانت تُريني اللوحات، هذان الشيئان اللذان وكأنَّهما على وشك أن يسيلَ ماءً منهما جعلاني أشعرُ بعدمِ الراحة.

سألتُها: هل رسمتِ هذه اللوحات؟

ـ لا، رسمها رجلٌ يُدعى لي بو.

ـ لي بو؟

ـ أجل، لي بو.

أومأتُ برأسي قائلاً إنَّني لا أعرفُ أيَّ شخصٍ يُدعى لي بو، وإنِّني لا

أتذكَّرُ مَن أنتِ في هذه اللحظة، ثم أكملتُ: اعذريني على صراحتي، لقد أهداكِ لي بو هذه اللوحاتِ على الأرجح لأنه يريد أن يكون على علاقةٍ معك. وعلى كلِّ حال، فأنا لستُ مهتماً بهذه اللوحاتِ أيضاً.

ـ حَسَنٌ يا غِيْ فيّ.

اعتدلت في جلستِها فجأةً وقالت بهدوءٍ: أنت لا تعرف لي بو، ولا تعرفني، فهل تعرف "لي جييه" إذَن؟

جَفَلْتُ والتحمت خيوطُ ذاكرتي التي تشبه الرماد كأنها أُلصقَت بصمغٍ غريب، وتذكَّرتُ الماضي بقلقٍ بالغ، وكأنّني أحدِّقُ في جدارِ ناصعِ البياضِ باحثاً عن النقاطِ العمياءِ لعيني. تذكَّرتُ بشكلٍ مبهمٍ أنني و"لي جييه" الذي ذكَرَتُه تشي تعارفنا منذ وقتٍ طويلٍ جداً، ربما منذ العام 1987...

ـ حَسَنٌ، رغم ذلك كيف عرفتِ اسمي؟

ـ كُفَّ عن التظاهر يا غِيْ فيّ. لقد تركتَ المدينةَ وجئتَ لتعيشَ في هذا المصرفِ الكريهِ قُربَ مصنعِ نشارةِ الخشب منذ عدةِ سنوات. لقد أصابَ عقلكَ خَطبٌ ما، زرتكَ منذ ثلاثةِ أشهر، ووعدتني أيضاً أن أقرأَ روايتَك، ووعدتني بأشياء أخرى كذلك. كتابةُ الروايةِ دمَّرَت ذاكرتَك.

أنهت تشي كلامَها ثم جلست بهدوءٍ وقد أرخَت يديها، وكأنها تنتظرُ أن أغرقَ في أحلامِ الماضي، أو أتحرَّرَ من تأملاتي.

وشيئاً فشيئاً، أصبح هذا الخيالُ الأحمرُ ضبابياً أمامي، ثم ما لبث أن اتضح على الفور.

أجبتها: "حسنٌ، أنا أعرفك. لكنني في الحقيقة أردت القول: "أنا أعرفك ولنوقفْ الأمرَ عند هذا الحد".

بدت تشي راضية، ثم لمست بيدِها أكثرَ تجاعيد وجهي عمقاً؛ هذا

طقسٌ، طقسٌ يُثبت تعارفنا، ورأيتُ أنَّه ليس أمراً يحدثُ تحت وطأةِ "اندفاعٍ عميق". لكنني شممتُ على الفور رائحةَ البيضِ الكريهةَ التي تفرزها البروتيناتُ الناتجةُ عن تلامسِ بشرتين، وأجدُ أنها رائحةً جيدة. ألقت تشي نظرةً عليَّ ثم وضعت غلافَ اللوحات على ركبتيها المضمومتين، وظلت تراقبُ تعبيرات وجهي بينما تُريني اللوحات، لعلَّها تريدُ أن تعرف إن كنتُ بالفعلِ مهتماً بتلك اللوحات أم لا. ثم اختارت لوحةً وأعطتها لي، كانت لوحةَ الخريفِ في الحديقة.

سألتني: ما هذه اللوحة؟

ـ شخصٌ يديرُ ظهرَه.

ـ وماذا أيضاً؟

ـ أوراقٌ جافة.

ـ إلامَ ترمزُ الأوراق؟

ـ إلى شخصٍ يديرُ ظهرَه.

توقَّفَتْ عن سؤالي، ثم قالت: "يا لكَ من شخصٍ لا تفهمُ الرسم." ثم صمتت. وبعد وقتٍ قصيرٍ قالت:

ـ أنتَ لا تشبه لي جييه مُطلقاً.

ـ لي جييه؟

ـ هو لا يفهمُ الرسم فحسب، بل يفهمُ الشِّعر، يعرفُ كيف يفتحُ العُلَب، يعرفُ كيفية علاجِ الصَّدفية، حتى أنَّه يفهمُ "سونياتا".

ـ سونياتا؟[2]

(2) ـ سونياتا: كلمة تعني الفراغ أو الخلاء وهو مبدأٌ في البوذية يحملُ معانيَ متعددة.

ـ نعم، "سونياتا" مفهومٌ فلسفي.

ـ لا أفهم.

لم تغادر تشي شقتي في المساء، وبالطبع لم يحدث الأمرُ المحتملُ حدوثه بين رجلٍ وامرأةٍ ليلاً في مكانٍ ناءٍ. ظلَّت تستمعُ إليَّ بصمت طيلةَ المساء وأنا أحكي قصةً، أحكي قصةً عن زواجي. وأظنُّ أنَّ ذكاءها وفطنتها جعلاها تخمِّنُ أنَّ هناك عائقاً في عمقِ ذاكرتي، أو كما تُفضِّلُ هي أن تسميه كبتاً. أليسَ هذا ما اكتشفناه عندما كنا نشاهدُ اللوحات؟ كانت طوالَ الليل تلعبُ دورَ طبيبٍ نفسي يصغي بانتباه، ولم يكن سلوكها نابعاً من إحساسِها بالشفقةِ تجاهي، بل لأنَّ كلينا يؤمنُ بهذه المقولة: الذاكرةُ قُوّة.

لم تظهر أي ظواهر فلكيةٍ غريبة في المساء، وتحوَّل شاطئُ الأحجار إلى زرقةٍ ثلجيةٍ صافية، بدت مثل مسحوقٍ بلوريٍّ أزرق ينتجُ عن تفاعل مواد كيميائية، والضياءُ الأزرقُ الباردُ المنبعثُ من تلك الأحجار التي تشبه العقيقَ لا يتناسب أبداً مع مناخ القصة.

ـ "ثم ماذا حدث؟" سألَت تشي.

بعد ذلك... حاولتُ قَدرَ الإمكان أن أسردَ القصةَ بنبرةٍ هادئةٍ صادقة، لأنَّ أيَّ إضافاتٍ وزخرفةٍ سيُفسدُ جوهرَها.

ـ بعد ذلك وقفتُ إلى جانبِ العجوزِ التي تبيعُ أمشاطَ الشَّعرِ الخشبية.

كنَّا في شهرِ أبريل، وكان فصلُ الربيعِ قد حلَّ متأخراً، رأيتُ الثلجَ والوحلَ مزيجاً مُجمداً، ومباني المدينة العالية تصدُّ التيارَ الباردَ القادمَ من الجنوب، والذي استحالَ إلى صوتِ ريحٍ عظيمة، بينما كتلٌ ثلجيةٌ مخروطيةٌ تتدلَّى من مصابيح متاجر نيون مُهملَة، وقد جذبتني امرأةٌ جميلةٌ في "مطعم البطريق"، وتبعتُها بلا وعيٍ مُجتازاً نصفَ المدينة.

على أن افتتاني هذا بامرأةٍ في سنّي أمرٌ طبيعي، وعزمت على اللحاق بها فقط لأنَّني أحببتُ الطريقةَ التي تمشي بها؛ تقاطع الحذاء الكستنائي طويل الرقبة مع انثناءِ ركبتِها وقدميها البُنِّيَتَين، تجاعيد البنطلون بلون القهوة تشكل طيَّاتٍ، والقوةُ اليافعةُ المستديرةُ تنتقلُ إلى الردفين حيث تستعيدُ التجاعيدُ لونَها الورديَّ عند الخصر، وما بين ساقيها يُشكِّلُ زاويةً حادة، والظهرُ المستقيمُ بلونٍ رمانيٍّ أحمر، يتمايلُ جسدُها في ترنحاتٍ مرنةٍ خرقاء، تجعلُه في حالةٍ ما بين الرقص والثبات.

ولم أستطع تخيلَ كيف سيكون مظهرُ امرأةٍ كهذه المرأةِ التي تسيرُ في الريح وهي توقدُ ناراً في الموقدِ أو تستحمُّ في حوضِ الاستحمام. وحين هممتُ بالتفكيرِ في الأمرِ توقَّفَتْ فجأة، فتوقَّفتُ أنا أيضاً إلى جانبِ بائعةِ الأمشاطِ الخشبيةِ العجوز.

ـ لشراءِ مشطٍ خشبي؟

بعدها حدثَ أمرٌ غريب.

حسبتُ أنَّ هذه المرأةَ قد توقَّفَتْ في الطريق دونما سبب، لأنه في أعماق ذهني خطرت لي أفكارٌ بدت لي وقتها فاحشة، خيالاتٌ جنسيةٌ كالعُري وخلافه. غير أنني أظن أنَّ هذه المرأةَ توقَّفَتْ عند الرصيف بسببِ شيءٍ ما يخصها، وليس استجابةً لما يدورُ في مخيلتي.

ـ لشراءِ مشطٍ خشبي؟

كنتُ أفكرُّ هل سأشتري مشطاً خشبياً أم لا، وراودني إحساسٌ غامضٌ أنها سوف تلتَفِتُ، وقد فعلت. بدت نظراتُها وكأنَّها تتفرَّسُ فيّ، وتحدِّقُ في الوقتِ ذاتِه إلى شيءٍ آخر، فتحاشيتُ النظرَ إليها. وكنتُ أعلَمُ أن التخاطرَ لقي رواجاً لبعض الوقت في هذه المدينة، إذ يكفي أن يتدرب الناسُ في ما

يُسمَّى "مركز التخاطر" لثلاثةِ أشهر حتى يستطيعوا استدعاءَ الحبيبِ في مخيلتِهم عبرَ الأفكار. وكان ثمة بعضُ الوسطاءِ الروحانيين على قدرٍ من التعليمِ والثقافةِ بإمكانِهم الربطَ بين الأفكارِ والنجوم. كنتُ مدركاً لشعورٍ خفيٍّ بالرعبِ داخلي، هذا النوعُ من الرعبِ لا يراودُ فقط إلَّا اللص حينما يسرقُ في ضوءِ القمر الساطع.

وشعرتُ أنَّها ستتجه إليَّ في الحال، وكأنَّ إشارةَ بدءِ حركتِها تنبثقُ من هواءِ الشتاءِ البارِدِ الذي ينتشر من اختراقِها له ويُنبهني مسبقاً.

ـ هي تتجه نحوي الآن.

نظرتُ إلى الشرطي الجالس في كشكِ الحارسِ المرتجفِ من برد الرياح، والمارةُ يسيرون كلٌّ في طريقه من دون أن يلاحظ أحد الموقفَ الذي أواجهه.

ـ كانت تتجهُ نحوي لسبب ما...

كانت هيئتُها وهي مقبلة تشبه تماماً هيئة استدارتِها بظهرها التي رأيتُها للتو، وقوةُ غموضِها مثل ينبوعٍ يتدفقُ من ثنيّات ملابسِها الصفراءِ الفاتحة والبنيةِ الغامقةِ والكستنائية. انتظرتُ اقترابَها بشيءٍ من التوتر. وإذ تتقدمُ بخطواتٍ رشيقة، راودني إحساسٌ فجأة وكأنَّها ساكنةٌ وأنا الذي أتقدمُ نحوها.

توقَّفَتْ أمامي وانحنتْ إلى الأسفل.

التقطتْ مسمارَ حذاءٍ لامعاً عند قدمي.

سألتْ تشي:

ـ وبعد ذلك؟

ـ وبعد ذلك لم أرها مجدداً، التقطتْ المسمارَ وغادرت بعيداً، واختفت وسط الزحام.

حدَّقت فيَّ تشي بنظراتِ إدانة، ما جعلني أشعرُ بعدمِ الراحة، ثم قالت: "أنت نرجسي". قلتُ: "على الأرجح نعم". صمتت تشي فترة قصيرة ثم أكملت: "يبدو أنَّ الأمر لم ينتهِ". فقلتُ:" أيُّ أمر؟"

ـ أنتَ وهذه المرأة.

لم أتمالك نفسي من الدهشة.

قالت تشي بلا اكتراث: "اتجهت تلك المرأةُ إلى محطةٍ للمواصلاتِ العامة بعدما التقطت المسمار، وركبت تراماً يتجه إلى الضواحي، لكنك لم تستطعِ اللحاقَ بهذا الترام، فركبت سيارة أجرة وتبعتها".

حدث الأمرُ كما قالت، لكنها أخطأت في تفصيلةٍ ليست مهمّة: أنني لم أملك نقوداً كافية حينها لأركبَ سيارةَ أجرة، فاستأجرتُ دراجةً للذهاب إلى الضواحي.

سألتُها: "كيف عرفتِ أن الأمرَ لم ينتهِ عند هذا الحد؟"

ردت تشي: "استناداً إلى معادلةِ الحب".

ـ معادلةُ الحب؟

كان الأمرُ بعيداً كلَّ البعدِ عن الانتهاء، وليس بسبب معادلةِ الحب التي استنتجتها تشي، بل لأنَّ القصة كلها تعتمد على قواعدِ سردي، فلم أكن راغباً في حكي ما حدث دفعةً واحدة، لأنَّه يلمس أعمق زوايا قلبي سِريَّةً، وتذكُّرُ هذا الأمر يجلب لي الحزن. والآن سأتحدث عن هذا الأمر.

تساقط ثلجٌ غزيرٌ حين ذهبتُ لتأجير الدراجة، وغرست نُدَفُ الثلج بذورَ تيارٍ باردٍ تحت غطاءِ الربيع. أصبح الطريقُ من المدينةِ إلى الضواحي أكثرَ ضيقاً، وشيئاً فشيئاً تلطَّخت عجلَتَي دراجتي بمزيجٍ من الوحل والسخام، وقلَّ عددُ المارةِ والسياراتِ في الشوارع، وغطَّى الثلجُ الأبيضُ

الطريق. ظهرت أمامي البيوتُ الريفيةُ والأحراجُ الممتدةُ على مرمى البصر. لم يكن الترام سريعاً، ولحقته دراجتي بأقصى سرعةٍ كي لا يختفي عن عيني.

كان الظلامُ قد حلَّ حين وصلَ الترامُ إلى الضواحي. وخُيِّلَ إليَّ أنَّ عويلَ الرياحِ الشماليةِ الغربية غلَّف الثلجَ المتساقط ودفعَ بالليل ليأتي قبل أوانه. نزلَت من الترام وسارت بمحاذاةِ طريقٍ منخفضٍ غير مستوٍ تجاه كوخٍ بعيدٍ يهتزُّ ضوءُه، بدا في ثلجِ الغسقِ مثل ظلٍّ أسود. لم يكن الطريقُ ضيقاً جداً، لكنّ آثارَ العجلاتِ وحوافرَ الخيولِ تجمَّدت وخلَّفت مواضعَ غائرةً وصلبةً في الثلج، وبين حينٍ وآخر تنزلقُ عجلاتُ دراجتي في هذه المواضعِ وتُصدرُ صوتَ جلجلةٍ معدني نتيجةَ اصطدامِ رفرفِ العجلاتِ بهيكلِ الدراجة.

كانت تسيرُ ببطء على بُعد عشرين تشانغ مني. يبدو أننا سرنا فترةً طويلة، رغم أنني استطعت بصعوبة رؤيةَ نهايةِ الطريق على التلال الثلجية في الضواحي. انزلق جنزيرُ دراجتي عدة مرات بفعل الطريق الوعر، وفي المرة الأخيرة التي انزلقَ فيها كانت يداي قد تخدَّرتا من البرد القارس، وتوجب عليَّ قضاء بعض الوقت في ضبطه. حين انطلقتُ من جديدِ بالدراجة، كانت قد ابتعدت وبدا ظلُّها من بعيدٍ غائماً. قُدتُ بأقصى سرعةٍ دراجتي التي أصبحت مثل حصانٍ أعمى يتقدمُ مترنحاً ومتعثراً.

ظهر أمامي في تلك اللحظة شخصٌ آخرُ يركبُ دراجة. بدا ضئيلاً، ويتقدمُ مُسرعاً أيضاً، وقد بعث ظهورُه في ليلةِ رياحٍ ثلجيةٍ موحشةٍ كهذه الدفءَ في نفسي، بهيئته التي ترسمُ قوساً منحنياً جميلاً في الطريق، وبدا في الليلَ كفراشةٍ سوداء أو كخفاش يحلق بخفةٍ.

ومرة أخرى انزلقت عجلاتُ دراجتي إلى حافةِ الطريق فيما بدا أنها قناةُ بين الطريق والحقول، ومن المرجَّح أن الفلاحين حفروها لأجل تركيب

أنابيب الصرف الصحي.

خُيِّلَ لي في اللحظةِ التي تخطَّته دراجتي ولامس كُمِّي الأيمنُ كُمَّه الأيسر، أنني سمعتُ صوتَ فرشاةٍ خفيفةٍ تمسحُ قماشاً مُبطناً بالريش.

ظهرت المرأة أمامي أخيراً، ولم أستطع تمييزَ حذائِها الكستنائي الطويلِ الرقبة أو الثنيات الصفراء والبُنية الغامقة لملابسها عند خصرها، وإيقاع ردفيها الغضَّين المنقسمين كحبَّةِ فول. بدت كبقعةِ حبرٍ تتفشى على قماشةِ رسمٍ قشديةِ اللون. لم أكن أعلم إن كان بيتُها موجوداً في تلك القرية التي تومضُ أنوارُها ولا أراها بوضوح، ولم أكن أعلم كذلك إلى أي مكان غريب ستأخذني. راودني هاجسٌ ما، ودفعت رياحُ الشتاء القارسة ونباحُ الكلاب القادم من بعيد أنفاسي إلى التسارعِ شيئاً فشيئاً.

وبعد مرور نحو عشرين دقيقة صعدت إلى جسرٍ خشبيٍّ ضيق بدا متزعزعاً أعلى مجرى النهر الفسيح. ترددتُ قليلاً حين وصلتُ إلى بدايته لأنَّني لم أرَ آثارَ حذائها حيث وطئت الجسرَ للتو. اختفت تلك الآثارُ النصفُ دائرية إلى جانب النهر فجأة. وأعتقدُ أن الثلوجَ المتساقطةَ غطَّتها، فقد كانت تغطِّي الجسرَ بكثافة. دفعتُ دراجتي وتقدمتُ مضطراً إلى إبطاءِ خطواتي.

النهرُ الأزرقُ القاتمُ يتدفق أسفل الجسر الوحيد بصمت، وأنا أبحثُ عن ظلِّها جاهداً.

ثمة سياجٌ واحدٌ لهذا الجسر، بسلاسل حديديّة تربط قطعًا خشبيّة مزعزعة فيبدو مثل حطامِ سياج، فيما الريحُ الشماليةُ الغربيةُ تنشرُ الثلجَ على السلسلة التي تُصدِرُ صلصلةً مرتفعة كتصادمِ معادن ثقيلة. كنت أستند على السلسلةِ بين حين وآخر لأن الناحيةَ الأخرى التي دون مُتكأٍ

متصلةً بالظلالِ القاتمةِ أسفل الجسر. اشتدَّ الليلُ إعتاماً، وانطفأت فجأةً أنوارُ المنزل الريفي الخافتةُ التي كانت تجذبني من بعيد، وشعرتُ وكأنَّني أهبط من قمةٍ ثلجيةٍ مرتفعة في حلمٍ، وراودني إحساسٌ أن المرأة ذات الحذاءِ الكستنائي الطويل الرقبة قد عبرت إلى الجهةِ الأخرى، لكنها في الوقت ذاته لا تزالُ أمامي، غير بعيدة، يفصلني عنها الليلُ والريحُ الثلجية.

فركتُ حذائي المطاطي المسطح في الثلج الذي يغطي الجسرَ الخشبي، ولم يكن مزاجي عكِرًا كما كان قبلَ قليل، ربما لأنني أيقنتُ بأنَّ الجهةَ الأخرى ليست بعيدة. فاستناداً إلى زاوية سطح الجسر المقوسة قليلاً، فإنّ الجهة الأخرى تبعد عني بما لا يزيد عن ثلاثة تشانغ(3) أو أربعة. لكني توقفت في تلك اللحظة، لأنني لم أرَ بوضوحِ المعالمَ الرماديةَ الممتدةَ أمامي، فتلمَّستُ السلسلةَ الحديديةَ وتقدمتُ، لكنَّني فجأةً شعرتُ أنَّ السلسلةَ اختفت أيضاً، فأصابني دُوَار. ترددتُ لحظةً ثم التفتُ عائداً.

تقدم نحوي شيخٌ يحمل فانوساً، وبدا نوره في ظلام الليل الساحق مثل فرخٍ صغيرٍ مزغب.

استطعتُ رؤيةَ الفانوسِ الذي يحمله بوضوحٍ حين اقترب مني، كان شيخاً بلحيةٍ بيضاء تجمَّعت عليها ندف الثلجِ البلّورية.

قال:

ـ لا يمكنك عبور هذا الجسر.

ـ لماذا؟

ـ لأنَّ الجسرَ أتى عليه فيضانٌ منذ عشرين عاماً.

(3) ـ تشانغ: وحدة قياس صينية تساوي ثلاثة أمتار وثلث المتر.

ضمَّ الشيخُ الفانوسَ بين ذراعيه وأخرجَ من زنَّارِه غليوناً صينياً طويلاً وأشعله. ورأيت ندف الثلجِ تتساقطُ بلا نهايةٍ في ضوءِ الفانوس الخافت. سحبَ الشيخُ عدةَ سحباتٍ قويةً من الغليون ثم أشار إلى النهر البعيد وقال:

ـ يوجد جسرٌ إسمنتيٌّ هناك.

نظرتُ إلى حيث أشارَ وارتجفتُ رجفة.

ـ لقد عبَرَت امرأة للتو من هذا الجسر.

ـ لم تعبر أيُّ امرأة من هنا.

ـ مَن أنت؟

تجاهل الرجلُ سؤالي وعلَّق الغليون بمهارة في زنَّارِه وأعطاني الفانوس، ثم أمسك الدراجة وبدأنا في العودة، واعتقدتُ أنَّه على الأرجح حارسُ الجسر.

ـ إنَّني أحرسُ الجسرَ من عبور أيّ قادمٍ في الليل، وأنبّه من لم يستجب للتحذيرات بأنَّه سيسقطُ في النهر.

ـ لكنني رأيتُ امرأةً تعبرُ الجسرَ للتو.

ـ لم أرَ أيَّ امرأة.

كنَّا قد وصلنا إلى بدايةِ الجسر، فناولته الفانوس الذي يتحوَّلُ الثلجُ على زجاجِه إلى قطراتِ ماء. قال لي الشيخ اركبْ دراجتك، سأنيرُ لكَ الطريقَ قليلاً. تجمَّدت أنفاسُه في الهواء على الفور وبدت كحزمةِ نورٍ تُشعُّ من كشَّاف، فأجبته وكأنَّني تذكرتُ أمراً ما:

ـ لِمَ لا تهدمون الجسر؟

ـ سيأتي فيضانٌ أشد.

ثم قال لي وأنا أركبُ دراجتي:

ـ لم تعبر امرأةٌ من هذا الجسر، ربما خدعتَكَ عيناك في هذه الليلةِ

الثلجية، قد يستحضرُ سطوعُ الثلجِ تخيلاتٍ، والتخيلات تدفعُ بالمرء إلى الهاوية.

هكذا ودّعت الشيخُ الذي وقف عند أول الجسر ورفع فانوسه لينير الطريق الذي كان قد تجمَّد. وبعد قليل اختفى النور خلفي ودلفتُ إلى العتمة من جديد.

رحتُ أفكِّرُ مرَّةً أخرى في تلك المرأةِ بحذائها الطويلِ الرقبةِ الكستنائي التي خُيِّلَ لي أنَّني رأيتُها تعبرُ الجسرَ الخشبي. أين هي الآن؟ ومَن ذاك الشيخ؟ وأيُّ جسرٍ ذاك؟ سأعودُ هناك لأتجوّل حين يغدو الجو صحواً. وإذ استغرقني التفكير، راحت دراجتي تهتزّ بشدة مرَّةً أخرى. تذكَّرتُ هذا الطريق، هذا الطريقَ الذي حفرت فيه العجلاتُ وحوافرُ الخيول أخاديدَ وشقوقاً عميقة، ولم تتوقف دراجتي عن الانزلاق. ثم تذكَّرتُ راكبَ الدراجة، ورنَّ في أذنيَّ صوتُ تلامسِ كُمَّينا الأشبهُ بفرشاةٍ تمسحُ قماشاً. استرخى مزاجي قليلاً حين تذكَّرتُ راكبَ الدراجةِ المائلَ الأشبهَ بفراشة، لأنَّه كان بإمكاني ربط نفسي بالواقع من خلاله. خشيتُ أن أكون قد فقدتُ صوابي، أو أنَّني كنتُ فيما سمَّاه الرجلُ أوهامَ الليالي الثلجية.

تعاظَم اهتزاز دراجتي فاصطدمت عجلاتُها بشيءٍ صلب وكدتُ أسقط من فوقها، ودفعني الفضولُ وحبُّ الاستطلاعِ إلى التوقف وتبيُّن ذاك الشيء.

وجدتُ دراجةً على جانبِ الطريق.

ما رأيتهُ فيما بعد ربما خمَّنته تشي، التي باتت تتململُ في جلستها، تارةً تلتقط مغلَفَّ لوحاتها، وتارةً تنظرُ إلى السقفِ وتطلقُ همهماتِ ضجرٍ وعدمِ رضى عن حكايتي.

قالت: يا لها من نهايةٍ مبتذلَةٍ للغاية.

ـ أي نهايةٍ؟

ـ حين اكتشفتَ تلك الدراجة على جانب الطريق، أدركتَ على الفور أنك أثناء ملاحقتك السريعة لتلك المرأة ذات الحذاء الكستنائي طويل الرقبة، صدمته، فبدأت تبحث في الأرجاء إلى أن عثرتَ على الجثةِ أخيراً في قناةِ أنابيبِ الصرف الصحي، وكانت قد تجمدت وغطّت حبّات الثلج وجهها.

هكذا كان الأمر.

استسلمتُ للصمت. فيما تشي تريحُ ذقنَها على يدِها وتُرسل نظرها إلى شاطئِ الأحجارِ الفيروزي. اشتدت عتمةُ الليل، وهبّ النسيمُ الباردُ على طولِ صفحةِ الماءِ البعيدة على منحدرِ الشقة وتسلّلَ بهدوءٍ عبرَ لوحِ النافذةِ إلى الداخل، شعرتُ بشيء من البرودة وتثاءبتُ تثاؤباً طويلاً، فتحركت عينا تشي السوداوان الغارقتان في التأمل ناحيتي فجأة وغمغمت قائلة: "هل أنتَ نعسان؟"، قلتُ: "لا". ورأيتُ أنّه ليس من المناسب إثارة أمور مثل النعاس وغيره وأنا أجلسُ أمامَ امرأةٍ في سكونِ الليل. وأظنُّ أنّنا نسينا الوقت، أو أنّنا سنظلُّ صامتين حتى طلوعِ الفجر. حاولت أن أتحدث في أشياء تافهةٍ لتلطيفِ اللقاء الذي غدا إلى حدٍّ ما مُحرِجاً، وشعرتُ أنَّ دماغي مثل إناءٍ مهجورٍ ملآنٍ بالقشِّ ونشارةِ الخشب، وفي تلك اللحظةِ تحديداً انصرفَ تفكيري إلى لي جييه الذي تحدَّثنا عنه في بدايةِ لقائنا.

سألتها: كيف تعرفين لي جييه؟

تورَّدَ وجهها شيئاً فشيئاً، وكأنّها انغمست على الفور في ذكرياتٍ سعيدة. كانت رموشها الرطبةُ المتشابكةُ كسياجِ قصبٍ تغطي عينيها، وأجابتني بنبرةٍ حميمةٍ كزوجة، صادقةٍ ومفعمةٍ بالشاعرية: أنَّها تعرفت على لي بو أولاً.

ـ مَن هو لي بو؟

ـ ابن لي جييه.

مضيتُ أفكِّرُ مليَّاً في الانطباع الذي تركه في ذاكرتي هذا الذي تسميه تشي "لي بو". أذكرُ أنَّني حللتُ ضيفاً على لي جييه في منزله الريفي العام 1987، وكنا نتأملُ الحديقةَ الخلفيةَ المكسوةَ بالثلج عبر زجاجِ غرفةِ المعيشةِ الشفاف، وثمة صبيٌّ يصنعُ كراتِ الثلج. وتساءلتُ ما إذا كان هذا الصبي هو لي بو الذي تتحدَّثُ عنه تشي؟

كانت تشي لا تزالُ تحدِّقُ خارجَ النافذة، وعيناها تلمعان وكأنهما على وشك أن تفيضا بسائلٍ أبيض أو أسود. وأظنُّ أنَّ النساءَ يَكُنَّ بهذه الهيئةِ المزهوة حينما ينغمسن في الذكريات والتخيلات حول عشاقهن، إذ بالنسبةِ لهن تكونُ الحياةُ أحياناً هي التخيل.

لم تفلح السيجارةُ التي أشعلتُها في إنعاشي. كنتُ مستنداً إلى حائطِ شقتي الأبيض وأشعرُ بالنعاس الشديد. كان الليلُ هادئاً في منطقة "ضفة الماء"، والنسيمُ يحركُ الستائرَ بخفة، ومياهُ المدِّ تفيضُ بإيقاعٍ على شاطئ الأحجار. وفي ذلك النعاس الثقيل الغامض، بدا وكأنَّني سمعتُ تشي تنادي اسمي بصوتها الطفولي وكأنَّه قادمٌ من بعيد. كان احتكاكُ ملابسِها بالكرسيِّ يُصدرُ صوتاً، وبدت مضطربة، وظِلُّها القَلِقُ يتحركُ أمام عيني باستمرار، وشيئاً فشيئاً دخلتُ عالمَ الأحلام.

مرَّ الوقتُ طويلاً. أيقظتني تشي برفق.

ـ تلك المرأة...

ـ أيَّ امرأة؟

ـ المرأةُ ذاتُ الحذاءِ الكستنائيِّ طويل الرقبة.

ـ ما بها؟

ـ هل رأيتها بعدها؟

لم تشرق الشمسُ بعد. كانت تشي تقفُ أمامي بشعرِها الكثيفِ الطويل، وقطراتُ عَرقٍ تتساقطُ من نهاياتِ شعرِها. سمعتُ صوتَ تنفسِّها الثقيل، وأظنُّ أنَّها قد وقعت في شِباكِ تفاصيلِ القصةِ وتشويقِها. وأرغمتني حساسيتُها المفرطة تجاه القصة على أن أحكي لها كل ما سأحكيه لاحقاً. تلك الأمور بعيدة جداً عني الآن، لكنَّني كلّما عُدتُ بذاكرتي إلى نورِ الشمسِ والمناخ قبل سنينَ عدّة، شعرتُ أنّ بإمكاني مدّ يدي ولمسها. لا مناص من تذكُّرِ الماضي. ورغم أنَّ تشي لم تذكرها في هذه الليلةِ العاديةِ الهادئة، فإنّ الطيورَ المهاجرةَ ستتداخلُ مع انعكاسِ ظلالِها الواضح. تردَّدتُ قليلاً لأحدِّدَ الطريقة التي سأحكي بها لتشي هذه الأشياء، لأنَّها لا تتعلَّقُ بي فقط، بل تتعلَّقُ بالكتاب الذي أؤلفُه الآن، وتتعلَّقُ بزوجتي التي توفيت بنزيفِ المخ منذ سنوات.

كان لقائي مُجدداً بالمرأةِ ذاتِ الحذاءِ الكستنائيِّ الطويلِ الرقبة صدفةً غيرَ متوقعة. ذهبتُ في ربيع العام 1992 إلى الضواحي لمراجعةِ روايةٍ طويلةٍ بموجب عقدي مع دار نشر "خي يا - البطة السوداء". كنت أسكن في مبنى صغيرٍ أبيض قريباً من "بحيرة غي ياو - بحيرة الأغاني الشعبية". كان المبنى جديداً لم يسكنه أحد، لأنَّ أنابيبَ المياهِ لم تُرَكَّب بعد، ولم تُستكمَل تجهيزاتُ الشقق، وكانت الحديقةُ أمامه أرضاً قفراً. والخشبُ الفائضُ وأعمدةُ الخرسانةِ المسلحةِ الملقاةِ في كلِّ مكانٍ تبعثُ في المرءِ إحساساً بالكآبة. وقبل أن آتي إلى هنا، صافحني عدةُ نوابِ إدارة ومساعدين مصافحاتٍ مؤلمةً قائلين: نحن آسفون بشأنِ الحالةِ الرديئة، حتى مقعد الحمام لم يُرَكَّب بعد، افعل كما تشاء يا غي فيّ.

كان لغرفةِ نومي شرفة ضخمة تواجه الجنوب. نحن الآن في أوِّلِ الربيع، وحين تنعكسُ شمسُ ما بعد الظهيرة على الشرفة، أكون جالساً هناك باسترخاءٍ وأدخن، وفي السماء فوق صفحة ماء البحيرة الشاسعة البعيدة، تكونُ الغيومِ البيضاء منخفضةً جداً وكثيفة، ومعلَّقةً هناك في سكون. ولأنَّ مياهَ البحيرةِ قذرةٌ بفعل الأمطار الحمضية ومخلفاتِ المدينة وعوادم سياراتها، فقد كانت المستنقعاتُ عند أطرافها والغاباتُ البكرُ الممتدة على مدى البصر مكسوةً بلونٍ رماديٍّ مُصْفرّ، وثمة طيور مالك الحزين وأبو منجل تُدَوِّمُ على سطحها. كنتُ أرى عدةَ بساتنةٍ منهمكين في العمل وقت الغروب، يقتلعون الأشواكَ والحشائشَ الضارةَ من الأرض، ويزرعون زهورَ الأدريون والزنبق، وكنتُ أذهبُ أحياناً للحديثِ معهم.

كان هؤلاء العجائز الصامتون كالأرض يجيبون عن أسئلتي بصعوبة، ولم يكونوا مهتمين مثلي بأمور الزراعة والطقس. كنت أذهب لمساعدتهم في أوقات فراغي وأُضفِّرُ أسيجةَ الخيزران حول الزهور، وأسقي زهور الأورديون والزنبق. وعندما تتفتح الزهور في الحديقة ستكون روايتي على وشك الانتهاء. كان الوقت يمضي بسكون في تلك الأيام التي كنت أقضيها هنا، إذ منحتني تلك المنطقة البعيدة عن صخب وضجيج المدينة مزاجاً هادئاً وشعوراً منعشاً، لكن الأحداث التي جرت بعد ذلك بمدة قصيرة جعلت هذا المبنى الأبيض يترك في نفسي ذكرياتٍ كئيبةٍ قاتمة.

بعدَ ظهيرةِ ذلك اليوم ذهبتُ كعادتي لأتجوَّلَ حول البحيرة. وجدتُ بَراعمَ تنبثقُ من الأرضِ المُعشبةِ الذاوية، فيما التربةُ المحروثةُ حديثاً تزحفُ مثل أمواجٍ على الحقولِ الواسعة.

كنتُ قد ابتعدتُ كثيراً، واختفى المبنى الأبيض الصغير عندما التفتُّ

لأنظرَ إلى البحيرة المتلألئة. كان نورُ الشمسِ الدافئ مشوباً بأثرِ ريحٍ شماليةٍ أصابتني بالبرودة، مثل ليلٍ لم تزل آثارُ عتمتِه في الصباح. وظهرَ تحت قدمي شيئاً فشيئاً ذَرقُ طيورٍ أصفر ورمادي. توقفتُ قربَ ماعزٍ يَرِدُ ماء البحيرة، لأنّني سمعتُ صوتَ بكاءٍ وصراخٍ غيرَ واضحَين تلك اللحظة، تطلعت في الأرجاء باحثاً عن ظلِّ إنسانٍ في الحقولِ الشاسعةِ البعيدة. أشعلت سيجارة وسرت متقدماً، ولم يمر وقتٌ طويلٌ حتى رأيتُ رجلاً وامرأة يتدحرجان على تلٍّ مُنحَدِر. كانا يتدحرجان إلى أسفلِ التل، وانزلقَ غطاءُ رأسِ المرأةِ الأخضرُ كاشفاً عن شعرها الطويلِ المبعثرِ الذي التصقت به أعشابٌ ووَحْل.

كانت تبكي بصوت خفيض حين وصلت إليهما بأقصى سرعتي، وتركها الرجلُ مستلقيةً على الأرض، وحينما ذهبت إليه مستعداً لإحكام قبضتي على ياقته وسؤاله عمَّا يجري، ركل ركبتي بغتة، وظللتُ جاثماً على الأرض ثلاثَ دقائق. كان الرجلُ قد صعدَ التلَّ حين نهضتُ في حالةِ دُوَار، وهناك آثارُ أسنانٍ نازفةٍ على وجهها. سوّت أزرارَ قميصِها ومشت مترنحة والتقطت غطاءَ رأسِها الأخضرَ وقالت لي معتذرة:

ـ هذا زوجي.

قرقعت جمجمتي كأنَّها مِفصلٌ مخلوعٌ أُعيدَ إلى مكانِه، وأدركت فجأةً أنَّها تلك المرأة التي قابلتها في مطعم البطريق قبل سنوات. تداخلَ انحناءُها أمامي لالتقاطِ منديلِ رأسِها الذي ظهر أمامي مرَّةً تلو الأخرى مع حركةِ التقاطِها لمسمارِ الحذاءِ المطبوعةِ في عيني منذ زمن. أظنُّ أنَّني حاولتُ قدرَ استطاعتي نسيانها. شعرتُ برعشةٍ في صدري أثارها ظهورُ تلك المرأةِ فجأةً أمامي اليوم. نظرت إليَّ بعينَيها المغرورقتين بالدموع وكأنَّني مألوفٌ لديها، كانت نظراتُها الغريبةُ مفعمةً بالشكِّ والارتياب.

نظرتُ إلى الرجلِ الذي سارَ بعيداً، ثم عدتُ ونظرتُ إليها.

سألتها: لماذا كنتِ تبكين؟

"لقد..." ثم صمتت وكأنَّ الكلامَ استغلقَ عليها، وتضرَّج وجهها.

ـ لأنَّه آلمني.

غطَّت المرأةُ شعرَها بالمنديل ولحقت بزوجها على عجل. صعدتُ إلى التلِّ المنحدرِ ورأيت الرجل يسير بخطواتٍ مترنحة، لم تبدُ ساقاه رشيقتي الحركة، فسقط بعدئذ في قناة مائية متلألئة أمامه. هرعت المرأةُ في اتجاهه وهي تلتفت في الوقت ذاته ناحيتي وتهتف: إنه أعرج...

أعرج؟ ابتسمتُ بمرارة، لقد ركل ركبتي ركلةً قويةً للتو!

كنتُ أعبث بقطعةِ نقدٍ معدنية وأسيرُ جيئةً فذهاباً بمزاجٍ منقبض. كانت تلك المرأةُ قد وصلت إلى زوجها وظلُّهما يتضاءل شيئاً فشيئاً أمامي. وبينما تهبُّ رياحُ رطبةٌ على الحقولِ البريةِ الشاسعة، أنارت الشمس الغاربةِ بأشعتِها القانية أشجارَ الباتولا البيضاء وسطوحَ الأكواخِ الريفيةِ البيضاء حيث اختفيا. أعتقد أنهما يعيشان في القريةِ القريبةِ من مبناي الأبيض.

لم ألمح أثراً لهما هناك لعدّة أيام. كنت أذهب كل يوم بعد الظهر يتبعني ظلِّي منتظراً مجيء المرأة لتقوم بأعمال الفلاحة. نمت الذرة واشتدَّ عودها، وروتها مواسمُ أمطار متتالية، وفاحت رائحة النباتات الخضراء المنعشة في الحقول، وحلَّقت أسراب النحل منذرة بطقس أدفأ، ولكن لم يظهر أيُّ أثرٍ لها.

زارني محررٌ إداريٌّ من دار النشر، فقلت له إنَّني انتهيت من نصف الرواية. لا أعتقد أنَّني سأغادر قبل أن أرى تلك المرأةَ مرَّةً أخرى.

تسرَّب إلى نفسي الضجرُ والوحدةُ أثناء إقامتي في المبنى الأبيض الصغير.

وذات يوم وعدني بستاني بأن يأخذني إلى القرية القريبة لنشرب الخمر. سرنا واحداً يتبعُ الآخر في أثلام الحقل الضيقة. مضيت أسأله عن أحوال القرية، وطلبت منه أيضاً أن يتذكَّرَ ما إن كان ثمة امرأةٌ ترتدي دائماً حذاءً كستنائياً طويلَ الرقبة، فقال الرجل إنَّ النساءَ كثيراتٌ في القرية، لكنه لا يعلم أي لون من الأحذية طويلة الرقبة يرتدين.

تقع الحانة في مدخل القرية. عببتُ ملءَ رئتي رائحةَ الخمر الكثيفة التي تغمر الريح واجتزت السياج الخشبي لبوابته، وثمة رجل يرتدي إزاراً حول خصره يغرفُ حبوبَ تقطيرٍ من زيرٍ ضخم. كانت جدران الحانة مطليةً بكلماتٍ لونُها أحمرُ قاتم، لكن يصعب تمييزها الآن بسبب أشعة الشمس ولفْح الرياح. وخُيلَ إليَّ أنَّني رأيت الأعرج يجلس في إحدى الزوايا لحظةَ رفعتُ ستارةَ البابِ للدخول، وبدا ثمِلاً.

أحاطَ دُخان التّبغ الرديء أنوارَ الحانة الخافتة، وفاحت الأرضُ الرطبة برائحة عفنة. طلبتُ زجاجة "يانغ خي داتشو"، وجلستُ إلى أقرب طاولة للمشْرَب. لم يكن هناك أحد، بينما العجوزُ المسؤولُ يَشُدُّ على كُرتين معدنيّتين ويغطُّ في نوم عميق.

كان الأعرجُ يشربُ بمفرده، وبدا ظهره محدودباً قليلاً. كان ذا لحيةٍ مفتولة، ملطخةٍ بقطرات الخمر اللامعة، ووجهه الداكن متغضِّناً بتجاعيد الشيخوخة. ويجلسُ بثباتٍ وكأنَّه ينصتُ إلى شيءٍ ما إلى الأبد، وحين مدَّ يده ليأخذ زجاجة الخمر استطعتُ رؤيةَ يده المرتعشة التي جفَّت أصابُعها واصفرَّت بفعل دخان التبغ.

لم أنتبه مطلقاً حين وصلت المرأةُ إلى الحانة، وعندما سمعتُ صوتَ تكسرٍ حادٍ يشبه تكسرَ زجاجاتٍ أو أكوابٍ رأيتها في ثُمالتي الغائمة ترفع

الأعرج الذي هوى تحت الطاولة. اتكأ على الطاولة مترنحاً واقترب بوجهه منها ثم بصق عليها. رأيتهُ يلوِّحُ بيده أمام وجهها عندما خلعت غطاء رأسها لتمسح البصاق، فسقطت على أرض الحانة الرطبة. بدت المرأةُ مثل بقعةِ حبرٍ مسجاة على الأرض التي ينعكس عليها ضوء الحانة الأخضر الخافت. ثنت خصرها الرشيق واستندت بيدها على الأرض وجسدها يتموج مثل ماءٍ في كوب. كنتُ قد وصلتُ إلى جانبها في تلك اللحظة ورفعتها من ذراعها، أمَّا الرجل فانحنى على الطاولةِ وغطَّ في نومٍ عميق.

أحدثت أصابعه خدوشاً على عنقها وخطّاً من الدم يشبه حشرةَ أم أربعة وأربعين جميلة. جمعت المرأةُ شعرَها الرطب، وسحبت الرجلَ من على الطاولة، ورمقتني بنظرة استجداء، فذهبتُ وحملتُه، والتقطت هي فردةَ حذائه المطاطي، ثم خرجنا من الحانة التي لا يزالُ صاحبها نائماً وبيده الكرتان المعدنيتان، وخيطُ لعابٍ كثيفٍ معلَّقٍ عند زاويةِ فمه. وكان هناك ظلٌّ أسود يُخرج حبوبَ التقطير من زيرٍ ضخمٍ كما رأيته عندما وصلتُ إلى باب السياج الخشبي. شعرتُ أنَّ الزمن متوقفٌ هنا.

لم تنبس المرأةُ بأي كلمة أثناء الطريق. فيما راحت عدةُ كلابٍ تنبحُ بشراسةٍ في حلكةِ الليل.

لم أجد منزلها في فوضى كما ظننت. كنتُ أشعرُ بالغثيان طوال الطريق من رائحة الخمر المنبعثة من الرجل، وحين جلست تحت نافذتها المضيئة في غرفةِ نومها، كانت قد وضعت زوجَها في السرير. أشارت إليّ فخرجنا إلى صالَة خارجية ضيقة. صبَّت لي كوبَ شاي، فمسَّدتُ حافةَ الكوب وأدرته، وهي تجلسُ قبالتي ضامة ذراعيها وتنظر ببلاهة إلى طاولة الشاي. نهضتُ فنهضَت معي وقالت: "اشرب الشاي أوّلاً ثم غادِر". فقلتُ: "إنّني أودُّ أن

ألقي نظرة على غرفة نومك". ترددتْ المرأة في البداية ثم قالت: "حَسنٌ". عدنا إلى غرفة نومها، ورأيت حذاءً كستنائيّاً طويلَ الرقبة لامعاً وموضوعاً عند مقدمة السرير: تقاطع الحذاء الكستنائي طويل الرقبة مع انثناءِ ركبتِها وقدميها البُنِّيَتَين، تجاعيد البنطلون بلون القهوة تشكل طيَّاتٍ، والقوةُ اليافعةُ المستديرةُ تنتقلُ إلى الردفين حيث تستعيدُ التجاعيدُ لونَها الورديَّ عند الخصر، وما بين ساقيها يُشكِّلُ زاويةً حادة، والظهرُ المستقيمُ بلونٍ رمانيٍّ أحمر، يتمايلُ جسدُها في ترنحاتٍ مرنةٍ خرقاء، تجعلُه في حالةٍ بين الرقص والثبات... طرفت عيناي عدة مرات ثم خرجتُ من غرفة النوم. سألتني: "هل أضعتَ شيئاً؟". فأجبتها: "لا". ثم خرجت إلى الصالة. خطر لي أن سنوات عدّة مرَّت منذ أن صادفت هذه المرأة في مطعم البطريق، وأنه ليس ثمة أي معنى كبير في أن أسقي شجرة الشباب الذاوية في ذاكرتي. نظرتُ إلى عينيها الصافيتين وأحسستُ بمرارة في فمي. أشعلت سيجارة وأعطيتها واحدة، فمجَّت مجّةً قوية، وترطَّبت زاويتا عينيها. كان الدخان المتصاعد ينقطع ويلتف حول اللمبة النيون التي تُصدرُ صوت أزيز.

جعلتني رائحة السجائر أستفيق من سكرتي الشديدة، وشعرتُ بسخونةٍ في وجهي. بدت المرأةُ في غايةِ الجمال وهي تمسك السيجارة بيدها البيضاء وتُحركها أمامي. وسمعنا من الغرفة شخير زوجها المديد.

قلتُ: "لقد رأيتكِ أوّل مرّة قبل سبع سنوات أو ثمان."

ـ سبع سنوات أو ثمان؟

ـ رأيتكِ خارج مطعم البطريق.

ـ مطعم البطريق؟

ـ ثم تبعتكِ إلى الشارع العام.

ـ أي شارع عام؟

ـ توقفتِ بعدها عند عجوز تبيع أمشاطاً خشبية.

ـ عجوزٌ تبيع أمشاطاً خشبية؟

ـ التقطتِ مسمارَ حذاءٍ من جانب قدمي.

ـ مسمار حذاء؟

ـ ثم ركبتِ تراماً إلى الضواحي.

ـ ماذا تقول؟

ـ كان الثلج يتساقط بغزارة، فاستأجرتُ دراجةً وتبِعتُكِ.

ـ لا أفهم ما تقوله.

ـ كان الظلام قد حلَّ حين نزلتِ من الترام.

ـ أنت سكران!

ـ بعدها ارتقيتِ جسراً خشبياً واختفيتِ.

ـ أنت سكران!

قالت المرأة بلطف: أنتَ سكران! لا يوجد أي مطعم بطريق هنا أو طريق عام، أو عجوز تبيع أمشاطاً خشبية، أنت سكران، ربما خلطتَ بيني وبين شخصٍ آخر؟

ـ لقد رأيتكِ في المدينة.

ابتسمت المرأة وأخذت رشفةً من كوب الشاي أمامي وأخرجت أوراقَه من فمها على مهل وقالت:

ـ لَم أذهب إلى المدينة مذ كان عمري عشرَ سنوات.

كان الوقت متأخراً جداً، وأنا أحدِّقُ بذهولٍ إلى السقف. لاحت أمامي تفاصيل الليلة الثلجية ولحاقي بها إلى الضواحي. نظرت إلى هذه المرأة

الجميلة الجالسة أمامي، امرأة صادقة صريحة، يظهر على وجهها الخجل الذي يُميز الريفيات البسيطات. ملأتْ كوب الشاي بالماء ثم سألتني إن كنتُ أشعرُ بالبرد، وإن كنتُ أريدُ إغلاق النافذة. فقلتُ لا داعي.

قلتُ: إذن هل لديكم جسرٌ خشبيٌّ متهدمٌ هنا؟

ـ هناك جسرٌ باتجاهِ المدينة.

ـ متهدمٌ بفعل فيضان؟

ـ لا ، سرقَ أحدُهم أخشابَه.

ثم أخبرتني شيئاً كأنَّها تذكَّرتُه فجأة: تساقط الثلج ذات ليلة بغزارة، وكان زوجي عائداً إلى المنزل بعد تناوله الخمر في القرية المجاورة ومرَّ بالجسر. وحين اقترب من أوَّله، حاملاً فانوساً، رأى آثارَ عجلات دراجة وحذاء مطاطي، ولم يرَ أثراً لأحد عندما رفع الفانوس. كانت السلسلة المعدنية في جانب من الجسر مغطاة بالثلج، وهناك آثار يد واضحة مطبوعة عليها، ولم تكن آثار العجلات والحذاء مغطاة بالثلج تماماً. فخطر له أنَّ أحداً ربما عبر بدراجته من هنا للتو، لكنه كان ثملاً تلك الليلة، ولم تكن قدماه مرنتين فلم يصعد الجسر ويستطلع الأمر. وبعد انقشاعِ الثلج في اليوم التالي، انتشل الناسُ دراجةً وجثةَ شابٍ من النهر.

تثاءبت المرأة وأنهت كلامها.

قلتُ إنَّني لا بد أن أغادر.

لم تنطق بكلمة. وخطر لي أنَّ صمتها ربما طريقة خفية لإبقائي، فظللتُ جالساً مكاني.

سألتني: أين تسكن؟

أخبرتها في المبنى الأبيض الصغير.

بدت وكأنها تعرف هذا المبنى، ثم قالت إنَّ الوقت متأخر للغاية، وإنَّ محصول الربيع من الذرة والسلجم نما واشتدَّ عوده، وإنَّ هناك ذئاباً تحوم في البرية، ومن الأفضل أن أغادر في الصباح.

وهكذا جلسنا في الصالة حتى طلوع الفجر.

كانت عتمةُ الليل تتراجع في منطقة "ضفة الماء". ولم ننتبه أنا وتشي لبزوغ الفجر. وخيوط النور تتسلل الآن من النافذة منعكسة على ملابس تشي البرتقالية الحمراء. وانتبهتُ في دفء وصفاء النور إلى وجهها المنهك قليلاً، سألتها هل هي جائعة أم لا؟ هل تريد بعض القهوة؟ فأومأت برأسها موافقة. أحضرتُ لها قهوة من المطبخ، وبدت كأنها لا تزال تفكر في حكايتي.

قلَّبت قهوتها بملعقة بلاستيكية وسألتني: إذن هل جلستما حتى الفجر؟

ـ نعم هذا ما حدث.

ـ هل كنتَ ثملاً قليلاً ذلك اليوم؟

ـ نعم.

ابتسمت تشي بخبث وسألتني: أَلَم تلمس تلك المرأة؟

كان الجو بارداً قليلاً عند الفجر، فأعطتني معطفَ زوجها. أمسكتُ يدها بارتباك لكنها سحبتها على الفور مثل ماء يتسرب من بين فراغات أصابعي.

كنتُ صريحاً مع تشي.

ـ أرى أنَّ قصتكَ مميزةٌ بعض الشيء.

ـ كيف؟

ـ قصتك دائماً عبارة عن دائرة، بمعنى أن تفاصيلها تنكشف داخل

التكرار في آن واحد. بوسعك أن تحكيها للأبد ما دُمت سعيداً. على كل حال أكمل كلامك.

أخذتُ رشفة قهوة ثم تابعتُ قصَّ ما حدث بعد ذلك.

ذات يوم، استمرّ مطرٌ غزيرٌ في الهطول على منطقة البحيرة منذ الليل وحتى اليومِ التالي. كنت أدخن جالساً على سريري ملتفّاً بلحافٍ خفيف. لقد حلَّ موسم هطول الأمطار. نظرتُ إلى السماء أعلى الحقول الخضراء، كان مشهد الأمطار معلّقٌ كستارةِ خرزٍ ثقيلة، والرياح تضرب بوابة سياج المبنى الأبيض الخشبي، وغلبني النعاس وأنا منصتٌ إلى شتى الأصوات في المطر، إلى أن سمعتُ في منتصف الظهيرة وأنا في حالة من دُوَارِ النعاسِ أحدَهم يدقُّ البابَ بقوةٍ في الطابقِ السفلي. خطر ببالي أنه ربما أحد البساتنة العاملين في الحديقة، لكن ماذا سيفعل بستاني في هذا الجو الماطر؟ كان صوت دق الباب يزداد باطراد. ارتديت ملابسي بتكاسل ونزلتُ لأفتح الباب. اندفعت الرياح القوية إلى الداخل ما إن فتحت مزلاج الباب على مهل، وارتجفتُ عدةَ رجفات.

كانت المرأةُ تقفُ في المطر.

كانت ملابسُها مُشبعةً بالماء الذي تسيلُ قطراتُه اللامعة من شعرها الطويل المنسدل على كتفيها. قالت لي إنَّ زوجها مات.

ارتديتُ معطف المطر وتبعتها إلى خارج المبنى.

طمس المطر الغزير معالم القرية. سرنا في أثلام الحقول صوب البيوت الريفية التي تراءت غير واضحة من بعيد. تعثَّرت المرأة وسقطت عدة مرات بسبب قلقها واضطرابها، ممَّا جعلنا نبطئ سرعتنا. قالت إن زوجها ذهب الليلة الماضية إلى الحانة ذاتها، وأثناء عودته في المساء تعثَّر وهوى إلى جانب

خزانِ صَرفٍ في القرية. وعثر عجوزان مسؤولان عن تنظيف المجاري على جثته في اليوم التالي. كان وجهه شاحباً بفعل ماء المطر، وأذناه مليئتين بالبراز. تناولتُ يدَها الصغيرةَ الباردةَ مثل سمكةِ أنقليس، وذهني مشوشٌ بسبب هطول هذا المطر الغزير. كان أمامي مدٌّ من فراغ.

رأيت حين وصلنا إلى أوَّل القرية رجالاً متوسطي العمر مشمِّرين عن أذرعهم، يحملون مناجل موشاة بحرير أحمر متجهين صوب الحقول البرية. بكت المرأة وقالت بصوت خفيض: إنهم ذاهبون لحفر قبر في المقبرة.

كان فناء منزلها لا يزال مضيئاً، وسوَّت مياهُ الأمطار الأرضَ الطينيةَ الصفراء وجعلتها صلبة، وثمة آثارُ أقدامٍ متناثرة هنا وهناك، ونجّارٌ ينشرُ بعض الأخشاب منحنياً عند زهور الخطمي المتفتحة. انبعثت من المنزل أصواتُ دقٍّ لصُنع التابوت، فيما الرجلُ مسجّى على لوحِ بابٍ خشبيٍّ بالٍ، مرتدياً بدلةً صوفيةً متينة، وقد غسلت جسده عجائز القرية. بدا وجهه المحلوقُ متورِّداً وضامراً. وبدا العاملون في صنع التابوت إلى جانب الجثة وكأنَّهم منغمسون بالكامل في عملٍ متقن. كانت المطارق تدق الخشب المتآكل جاعلة نشارة الخشب التي تشبه إبر الصنوبر تتطاير بفعل الارتجاج. جثت امرأةٌ تُشبه عرَّافة إلى جانب جثة الرجل ورفعت يديها استعداداً للبكاء والعويل، لكن بدا أنها تذكرت أمراً ما فجأة، فالتفتت إليَّ بعينيها الرماديتين وقالت: المسامير لا تكفي. فهرعت إلى النجار لأبحث عن مسامير، لكنها رمقتني بنظرة وأكملت: اذهب وابحث عن بعض الحبَال. وعندما استدرت خبطت بيديها على الأرض وانتحبت بألم.

تبعتني المرأة بسرعة وأنا أبحث عن الحبال داخل المنزل، وجسدها المرتجف قريبٌ مني.

توقفت الريح العاصفة التي كانت تعوي طيلة الليل ما إن وُضِعَت الجثةُ في التابوت، وكان المطر لا يزال يهطل رذاذاً. خيَّمَ صمتٌ على المنزل، انحنت المرأة إلى جانب التابوت وألقت نظرة طويلة على جثة زوجها. أفسد بكاؤها الهواء المغبر في الغرفة. بينما ألقى الرجال الذين دقوا التابوت مطارقهم ونفضوا التراب عن أيديهم وجلسوا القرفصاء يدخنون.

مرَّ وقتٌ طويلٌ جداً.

أصبح صوتُ المرأةِ مبحوحاً قليلاً. رأيتها تبكي بينما تجول الأرجاء بعينيها اللامعتين، كانت ثمة شِباك عنكبوت معلقة على العارضة مثل لوحة تصويب، وعنكبوت أخضر يتسلق خيطاً حريرياً رفيعاً مترنحاً في النسيم مثل بندول ساعة. أدركتُ فجأة أنها ربما تتظاهرُ بالحزن. أشار لي النجار بعد قليل، فرفعنا غطاء التابوت الذي يشبه قبة نفق وغطينا التابوت برفق. أخذت العرافةُ المرأةَ بعيداً، وفي اللحظة التي غطينا فيها التابوت اندفع عدة رجال وأحاطوه استعداداً لتثبيتِ غطائه بالمسامير، وفجأة رأيت الجثة تتحرك. وكنت متأكداً ممَّا رأيته، فارتعاش وجه الميت أو تحرُّك ركبته وغير ذلك هي ردود فعل عصبية كما يُقال. لكنني رأيت بوضوح تام تلك الجثة ترفع يدها اليمنى وتفتح الزر الأول في البدلة، ربما كان معتاداً على ارتداء هذه البدلةِ الصوفية.

بقيتُ صامتاً.

لم أترك منزلها بعد الجنازة. إذ قالت لي إنَّها تخاف من البقاء بمفردها في الليل، وطلبت أن أبقى لثلاثةِ أيامٍ على الأقل.

وفي مساء اليومِ الثالث استمر هطولُ الأمطارِ الغزيرة.

جلست أمامي وعيناها حمراوان قليلاً. بعد أن انتهت أحاديثنا المطولةُ

في ليلتين، وأظن أنَّ الوقت يمرُّ سريعاً في الدردشةِ المتواصلة. وفي مواجهةِ الصمت أصبح قلبنا هشَّاً. كنتُ لا أزالُ أفكِّرُ في هذا الرجل ولَكَم كان موته غريباً، وأشعرُ بين حينٍ وآخر أن الأمر مكيدة.

ـ لماذا جئتِ للبحث عني، بينما يسكرُ زوجك إلى حدّ الموت؟

ـ لا أعلم.

ـ لماذا لم تذهبي للبحث عنه في الحانة حين تأخر الوقت ولم يعد؟

ـ لا تتحدث عن الأمر.

ابتسمت لي المرأة ابتسامة جذابة، وشعرتُ أنَّها تبتسمُ على مضض. بسطت يديها على الطاولة، خفق قلبي، وترددت برهة، ثم أرخيتُ راحةَ يدي في يدها الناعمة الرطبة. أمَّا ما حدث بعد ذلك فليس من المناسب ذكره، لكن ثمة بعض التفاصيل الصغيرة ممَّا له علاقة بما حدث، وسنعد ما يلي نهايةَ هذه القصة.

كان صوت هطول الأمطار يشتد أكثر فأكثر. رَنَت المرأة إليَّ بعينيها الشبيهتين بتنهيدة لفترة طويلة، وإذ انحنت لتساعدني في فك رباط حذائي، انفجرت السماء ببرق صامت، فارتجفت ساقاي. نظرتْ إليَّ المرأة ثم تابعت فك الرباط. استلقينا على السرير، وأحسست أنه رطب بعض الشيء بسبب هطول الأمطار المستمرة. شممت رائحة كافور تنبعث من شعرها عندما لمست بشرتها الباردة مثل جلد ضفدع، وظللت ساكناً لفترة طويلة محدقاً بذهول إلى أعلى الناموسية.

أُفضِّل أن أحبس أنفاسي وأنصت إلى العاصفة في الخارج.

ـ سألتني المرأة: بِمَ تفكِّر؟

ـ ثمة صوت غريب قادم من خارج المنزل.

ـ صوت ماذا؟

ـ صوت امرأة تبكي.

ـ هذا صوت هبوب الريح القوية على قمم الأشجار.

ـ لا، هناك شخص يبكي.

ـ أين؟

ـ في الباحة.

نزلنا من السرير، ولففت بطانية حولي وارتديت حذائي ثم خرجت إلى الباحة. لم يكن بوسعي رؤية أي شيء، فأضاءت المرأة الكشَّاف. تتبعتُ نوره الشاحب البطيء، ورأيت قن دجاج بالٍ، وأشجار الخطمي تتمايل في العاصفة، ومزراباً يرشح مياهاً قذرة كالحة عند حافة الجدار.

قالت المرأة: لعلَّها قطة. فسحبتني إلى الداخل وأغلقت الباب.

استلقينا في السرير من جديد، ومدت المرأة يدها لتطفئ المصباح. ولم تمر فترة طويلة حتى انبعث الصوت مرَّةً أخرى، وبدا كأنَّه قادمٌ من فراشٍ يحيطه الموت، أو قادماً من نهرٍ أبعد. كان صوتَ بكاءٍ طفولي، يظهرُ أحياناً ويختفي أحياناً أخرى، وشعرتُ أنَّ رأسي يتضخَّمُ في هذا الإيقاع الضعيف.

بقيت المرأة في مكانها في المرة الثانية التي خرجتُ فيها.

فتحت الباب المؤدي إلى الباحة. ظهر برقٌ بصمتٍ في السماء، وتراءت من بعيد الحقول الخضراء القاتمة والبحيرة الواسعة التي أنارها البرق.

رأيتُ صبيةً تقف في وسط الباحة في اللحظة التي لمع فيها البرق. كان جسدها العاري انعكاساً صافياً في برك الماء، والدموعُ تغطِّي وجهَها الطفولي.

كانت ذاكرتي كسلسلة صدئة تنقطع كالرماد قطعةً تلو الأخرى. في اللحظات التي تتلاشى فيها ذاكرتي، يظهر في ذهني مشهد وأنا في السادسة

من عمري أراقب أختي الصغيرة وهي تستحم في حوض الاستحمام، وفي الوقت ذاته، ترنُّ في أذني تلك الليلةُ الثلجيةُ الأشبهُ بالحلم، وتُرجِّع صدى حفيف الملابس الخافت في ذلك الطريق المتجمد المليء بالحُفر. لا أعرف شيئاً عن الباقي. انزلقت يدي المتكئة على إطار الباب بضعف ثم سقطتُ إلى جانبه مغشياً عليَّ.

عندما أفقتُ رأيتُ المرأةَ واقفةً عند مقدمةِ السرير، ترنو إليَّ بنظراتٍ عميقةٍ وحنونةٍ كأنَّها أم، وتدخنُ بصمت، ثم ابتسمت لي ابتسامةً لطيفة. طلبتُ سيجارةً أيضاً، فقد جعلتني رائحةُ الدخانِ الكثيفةِ أُهدأ شيئاً فشيئاً.

ـ ماذا رأيتَ منذُ قليل؟

حكيتُ لها كلَّ شيء.

ـ إنَّكَ أكثرُ جبناً مني، هذه أوهام، أنت مُتعب.

قلتُ لها إنِّني حلمتُ حلماً عجيباً للتو.

ـ بماذا حَلُمتَ؟

ـ حلمتُ أنَّ جثتكِ تطفو في النهر تحت ذلك الجسر المتهدم، ونهديكِ يغطيهما عشبٌ أخضر، وكان هناك شخص في أوَّل الجسر يغني "الوردُ، الوردُ يتفتحُ في كلِّ مكان".

ابتسمتْ المرأةُ بمرارة.

سألتها: لنتزوج؟

ـ حَسنٌ.

ـ "بعدها تزوجتَ تلك المرأة؟". أخذت تشي نفساً عميقاً.

ـ أجل.

كان الوقت ظهراً في منطقة "ضفة الماء" وأشعة الشمس الحارقة تسفع

أحجار الشاطئ الحمراء البنية وتحيلها إلى لون أبيض بعد انحسار المد. وبعد إلحاح تشي لمعرفة ماذا حدث بعد زواجي بهذه المرأة، قلتُ إنها ماتت في يوم زواجنا. تم تحديد موعد الزواج حسب رغبتها على أن يكون يوم عيد ميلادها الثلاثين. شربنا النبيذ الأحمر وسط أضواء الشموع الهادئة، وفجأة ظلَّت تكرر جملة "انطفأ النور"، إذ أثَّر نزيف المخ على بصرها، رأيت وجهها المتورد يتحول إلى أصفر شمعي، لكن كنت أعلم أنَّ الأوانَ قد فات على إنقاذها.

نهضت تشي موقنة أنه ليس ثمة ما يُضاف إلى حكايتي. قالت إنَّها لا بد أن تغادر، وإنَّها ستذهب اليوم إلى "حديقة المدينة" للمشاركة في حفل افتتاح تمثال ضخم لحركة المستقبليّين، وقالت إنَّ لي بو وعدداً من الفنانين الشباب يطلقون على أنفسِهم "جماعةُ المُذَنَّبات" قاموا بنحتِه، وقالت إنَّها ستأتي لزيارتي مرّة أخرى.

سألتها: في أي فصلٍ نحن؟

ـ الخريف.

شعرتُ وهي تودعني بأنَّها غريبةٌ مثلما جاءت. ضمَّت مُغلَّفَ لوحاتِها وغادرت شقتي على عجلٍ من دون أن تقول إلى اللقاء.

لا زلتُ أكتب ذلك الكتاب الذي يماثل سفر يوحنا. كانت منطقة "ضفة الماء" هادئة كالمعتاد، والحصى الملون يتراكمُ على الشاطئ الضحل، ويبدو في النهار مثل بَيضٍ أحمر، إلى أن يتحول إلى أزرق عند حلول المساء. كانت تشي قد وصفت بسوء نية المنطقة بمصرف مجاري يجاور مصنع أخشاب، وقد أزعجني ذلك لبعض الوقت. وذات يوم سرتُ شمالاً بمحاذاة صف السنابل الذاوية، لكني لم أرَ أي مصنع أخشاب. كان الوقت متأخراً

جداً حين عدتُ إلى شقتي، وظهرت في السماءِ المعتمةِ النجومُ التي تدور بأذيالها اللامعة والقمرُ ذو شكل ثمرة الكرز غير المتناسقة. يبدو أنَّ وقتاً طويلاً قد مرّ. لم تظهر تشي مطلقاً، كنت أجلس كل يوم عند النافذة أراقب قطرات الصقيع الذائبة المتساقطة من إفريز السطح المرتفع.

كنت أترقب مجيئها كل يوم.

لم أعلم كم شتاءاتٍ مرَّت وأصيافاً. وذات يوم رأيتُ تشي تسير بمحاذاة الشاطئ صوب شقتي، مرتدية كالسابق معطفاً بلون أحمر برتقالي - أو بني مائل للحمرة - وخطواتُها تصدرُ رنيناً أجوفَ على الحصى، ونهداها النافران يتقافزان بجموح. كانت تحمل مُغلَّفَ اللوحات الملفوف بالقماش والذي يبدو من بعيد كأنَّه مرآة. جلستُ أمام باب المنزل في انتظار وصولها.

توقَّفت تشي حين وصلتْ عند تقاطع الطرق المقابل لبوابة منزلي. ألقت نظرةً على صفحة الماء الصافية الشاسعة ثم التفتت ونظرت إليَّ، وخُيِّل لي أنَّها تشيرُ لأذهبَ إليها، وهذا ما فعلت.

ـ هل لديك ماء؟

ربما شعرَتْ بالعطش بسبب سيرها في شمسِ الظهيرة. أعطيتُها كوبَ ماءٍ فشربتُه، ومسحتْ شفتيها ثم أعطتني الكوب.

ـ هل جئتِ لتريني لوحاتٍ مرَّةً أخرى؟

ـ ماذا؟

رمقتني بنظرةٍ لا مبالية كما لو أنها لم تسمعني بوضوح.

ـ لا بد أنَّها اللوحة الجديدة التي رسمها لكِ لي بو.

ـ لي بو مَن؟

ـ ابن لي جييه.

ابتسمت تشي على مضض، وقالت إنَّها لا تعرف أيَّ لي بو، أو لي جييه، ولم يرسم لها أحدٌ لوحاتٍ أبداً. مَن أنتَ؟

أصابني الذهول.

قلتُ: تشي، أَلَم تأتي إلى شقتي منذ فترة؟ وأريتني لوحاتٍ رسمَها لي بو؟ لوحاتٍ بها أوراقُ شجرٍ متساقط وعامود كهرباء، وأمضينا الليلَ نحكي حكايةً وظللنا مستيقظين حتى الصباح؟

حاولتُ جاهداً البحثَ في ذاكرتي عن كل تفاصيل المرة الأولى التي قابلتُ فيها تشي، لكنها قاطعتني بحسمٍ ولباقة.

ـ اسمي ليس تشي، أنا مجرد عابرة طريق. طلبتُ منك كوب ماء لأنَّ الطقسَ حار، تظنني شخصاً آخرَ بالتأكيد.

ـ إذن... وأشرتُ إلى مُغلَّفِ اللوحاتِ الذي تحمله.

وضعت الفتاة المُغلَّفَ على ركبتها وفكَّت الشريطَ الأخضرَ الفاتحَ بمهارة.

كانت مرآة لامعة.

غلَّفت المرآةَ من جديد وحملتها ومرَّرت يدَها في شعرها الطويل، ولوَّحت لي مودعة وغادرت.

ابتعد ظلُّ الفتاةِ عني.

بسطت أسرابُ الطيورِ البُنِّيَّةِ المهاجرةِ أجنحتها، مُحلِّقةً فوق سماء منطقة "ضفة الماء" الزرقاء الفضية، تنشرُ صفيرَها الرنَّان أعلى الشاطئ البني المائل للحمرة الذي لا يُرى له نهاية. كانت تلك الطيورُ البُنِّيَّةُ المهاجرةُ تُحلِّقُ كلَّ يومٍ مارَّة بالمنازل في المنطقة، لكنها لا تتوقف أبداً.

ذكرى السيد وو يو

1

تذكَّرَ الناسُ السيد وو يو باستياء، حين جاءَ إلى القريةِ رجلان متوسطا العمرِ في زي شرطة، مع فتاة ترتدي تنورة، وكان ذلك الحدثُ القديمُ يُوقع أثراً في النفس كالأثرِ الذي يُوقعه فقدُ العذريةِ على فتاة. ورغم انتعاش ذاكرة أهالي القرية بقدومِ أولئك الثلاثة، فإنّ الجيلَ الأكبرَ ظلّ يواجه بعناد محاولات الشباب في نبشِ الماضي واختبارِ ألمِه بالقول:

الزمنُ يمحو كلَّ شيء.

كان عملُ أولئك الثلاثةِ يمنحُ الناسَ قليلاً من الطمأنينة، لكنه لم يخلُ من التباهي أيضاً، فقد رأى أهالي القريةِ بقدومِهم الأصفادَ وغيرَها ممَّا يُسمَّى أدواتِ الشرطة. كانوا يعمدون إلى الاختباءِ في ظلالِ الأحراجِ والزوايا لاستجوابِ الفلاحين المنشغلين بأعمالِهم عن أدقِّ التفاصيلِ المتعلقةِ بالسيد وو يو.

لم يحصلوا على أجوبة. ليس بسببِ جهلِ الناس، بل بسببِ فتورِهم ومواجهتهم الأمور كلّها دون اكتراثٍ. لكنني وافقتُ على التعاونِ مع أولئك الغرباء. أذكرُ بوضوحٍ صباحَ إعدامِ المتهمِ بالرصاص، وبينما كنتُ أتهيأُ أنا وأمي للذهابِ إلى مكانٍ يبعدُ نحو ثلاثين لِيْ لمشاهدة إعدامِ السيد وو يو،

صفعتني أمي وقالت: "إعدامُ إنسانٍ مثل ذبح الدجاج". فذهبتُ إلى الباحةِ الخلفيةِ لأشاهدَ أخي، "الموقر ك"، الذي كان لا يزال صغيرَ السن يقبضُ على دجاجةٍ من عنقها بيد، وفي الأخرى سكينٌ بطول 4 سم. وما أن رآني حتى طلبَ مساعدتي، فقلتُ له: "ذبحُ الدجاجِ مثل قتلِ الإنسان". فردَّ: "أجل". وفجأة تحرَّرتْ الدجاجةُ من يده وقفزت فوق حَجرٍ نتخذه مقعداً وطارت صوب سور الباحة. التقط السكينَ الملطخةَ بالدماءِ وجلسَ محدقاً إلى ريش الدجاجةِ المتطايرِ في الهواء، سحبتهُ من يده وخرجنا من باب الباحة، وقلت له إنني سآخذه لرؤيةِ مشهدٍ حقيقيٍّ لقتلِ إنسان. وأثناء إعدام السيد وو يو كان يقفُ إلى جانبي فاغرًا فمَه، وهيئته تختلفُ تماماً عن محاولته ذبح دجاجة، وفي طريق عودتنا إلى المنزل قال أخي جملةً بحذر، كانت الجملةَ الوحيدةَ التي سينطقُها خلالَ الأيامِ الثلاثةِ بعدئذ: إنَّ قتلَ الإنسان أكثرُ سهولةً من ذبحِ الدجاج.

لم يجد الغرباءُ شيئاً يستحق الاهتمام في ما قلته، ولم يُسجِّلْ أيضاً، لكنني حين أخبرتهم عن علاقتي الطيبة بالسيد وو يو ابتسموا بلطفٍ وشجعوني على الحديث، وتحدثوا بلهجةٍ شماليةٍ مصحوبةٍ بنغماتٍ من ألحان رقصة اليانكو يقشعرُّ لها البدن. أخبرتهم أنَّ يوم إعدام السيد وو يو صادفَ يوم عيد قوارب التنين، فردت الفتاة: عظيم!

كان بالفعل يومَ عيدِ قواربِ التنين، بقيت النساءُ مستيقظاتٍ طوال الليل، وذهبن جهة النهر لقطف أوراق القصب وعُدنَ بالأطواف الخيزَرانية والطسَت والسامبان المحمل بالتسونغستي[4]. كان ضبابُ النهر مثل بخارٍ

(4) ـ التسونغستي: الأرز المطبوخ الملفوف بأوراق القصب.

يأبي أن ينقشع، مشوباً برائحةِ القصبِ الكثيفةِ المنعشة. بدأ الرجالُ في تنظيفِ الأرز وغسله في مناخل كبيرة، فيما الأطفال يلعبون خلفهم في ماء النهر بأعواد صفصاف مقشَّرة، وفي تلك اللحظة اندفعت امرأةٌ شابةٌ تركضُ من شرق القرية نحو غربها، فأدرك الناسُ من هتافها أنَّ اليوم هو يوم إعدام السيد وو يو. كانت عيون أهالي القرية تراقبها وهي تركض، وثمة صبيانٌ يجهلون ما يجري ولم يسمعوا بوضوح ما هتفت به، لأنَّ تركيزَهم كان منصباً على جسدها النضر المتقافز داخل بلوزتها الوردية، وبعد الواقعة تحدَّث الصبيان مع الناس عمَّا حدث في الصباح قائلين إنها المرةُ الاولى التي يرون فيها تلك المرأة تركض، وبدا الأمر لهم وكأن الحياةَ كلَّها قد توقفت.

2

كان الضباط الثلاثة يُعلِّقون على خصورهم شتى أنواع القطع النحاسية، وما أن تُسمع قرقعتُها يدرك أهالي القرية أنهم يتجولون في الشوارع. قابلوا امرأةً متوسطةَ العمرِ في منتصف الشارع وبدؤوا في استجوابها، وضع أحدهم طوقاً نحاسياً حول رأسها قائلاً: "إنَّ هذا جهازُ كشفِ الكذبِ عالي التردد، وهو أكثرُ جهازٍ متطورٍ لكشفِ الكذبِ في العالم، وسيُصدرُ إنذاراً إن كذبتِ". وما أن وضعوا الطوقَ حتى سكتت المرأةُ ولم تتفوه بكلمة، وفور خلعه عن رأسها مضت تتحدث بلا انقطاع، وكانت تلك المرةَ الأولى التي تفشل فيها أجهزتهم.

أظهروا استياءً لا مثيلَ له، ودفعوني لاصطحابِهم إلى منزل السيد وو يو، وهو عبارة عن معبدِ أسلافٍ رباعي الزوايا آيلٍ للسقوط. وحين استطعنا

بعد عناء فتح القفل الصدئ تناثرت طبقةٌ كثيفةٌ من الغبار، إذ كانت غرفته مغلقةً لم يدخلها أحد منذ إعدامه. والأغراض جميعها في الداخل على حالها، وكأنَّها بانتظار أن يعود صاحبها ويستخدمها من جديد. وكان ثمة لوحة مرسومة بقلم رصاص أهداها له رسام بورتريه عابر غطَّتها طبقةٌ كثيفةٌ من غبارٍ أبيض: شمسٌ قاتمةٌ تغربُ بين أحراجِ القصبِ على ضفتي نهرٍ أسود، وطائرا مالكِ الحزين متقاطعا المنقارين. كان السيد وو يو محبَّاً للديكورِ والنظافة، يحلق لحيته مستخدماً سكيناً حادةً مثلثةَ الحواف، ويلف حول خصره مشمعاً أسودَ أثناء غسلِ الأطباق. وبعد مرور سنوات طويلة، وحين سُئِل الناس عن انطباعهم عنه، أوشكت إجاباتهم أن تتطابَق: كان مثل امرأة!

لم تُسفر التحقيقات في قضية السيد وو يو عن نتائج مفيدة، لكنهم اكتشفوا أنَّ أرفف الكتب فارغة، وقد كان السيد وو يو محبَّاً للقراءة والكتب، وحين أصدر عمدةُ القريةِ أمراً مفاجئاً بإحراقها، فإنَّ الحرق استغرق نحو خمس ساعات، فيما حدَّق أهالي القرية إلى ألسنةِ اللهب المنعكسةِ على وجوههم وهي تقذفُ بخيوطِ رمادِ الكتبِ إلى المدخنة، شينتزي فقط مَن بكت، لقد علَّمها السيدُ القراءة، وأصبحت تذهبُ إلى المعبدِ لتقرأ، وسرعان ما تعلَّمتْ من الكتبِ أنواعَ العلاجِ المختلفةَ للحصبة.

أمَّا عن سبب الحريق فقد قال البعضُ إنَّ عمدةَ القرية كان سكرانَ، وعارَضهم آخرون قائلين إنَّه لم يُسرف في الشراب ذلك اليوم.

3

بدا الناسُ في حالةِ ذهولٍ من تصرف السيد وو يو في ذلك اليوم، إذ رأوه يقبضُ على سكين حلاقة مثلثة الحواف بطول سبع بوصات، ويقف في أكبر ميدان بالقرية لمواجهة عمدتها. أدرك الجميع أنَّه ينتظر في الميدان منذ عدة ساعات من نفاد الصبر البادي على وجهه. علَّق العمدةُ قميصه على غصن شجرة كاشفاً عن عضلاتٍ سمراء بلون قشر الكستناء. اندفع السيد وو يو بسكينه كحمارٍ بري فتجنبه العمدةُ منحنياً وسدَّد لأنفه لكمةً أولى فأدمته وكأنَّ حبةَ طماطمَ فاسدةً قُذِفت على وجهه، ثم جاءت اللكمةُ الثانيةُ على قفاه، فترنَّح ثم تهاوى. كان هذا المشهدَ الذي رأيته صباحاً ما أن فتحتُ شباكَ العلِّية: الميدانُ يضجُّ بالجموعِ التي أحاطت العمدةَ والسيدَ وو الذي نهضَ ببطءٍ وقد تجمَّع الدمُ كُتلاً على وجهه، وخطا خطواتٍ إلى الأمامِ متعثراً مترنِّحاً مثل مهرج، ثم سقط.

حين سمع الضباط الثلاثة هذه الواقعة من حارس الغابة الكهل رقصوا مُبتهجين، حتى أنَّ الفتاة قبَّلَت فجأةً لحيتَه الكثَّة. كان حارسُ الغابةِ مَن حمل السيدَ وو يو وأوصله إلى منزله في ذلك اليوم، ما عرَّضه لتوبيخٍ يوميّ من زوجتِه لأنَّ بقعَ الدم على ظهرَ القميص لم يُمْحَ أثرُها. وإلى الآن، بوسعنا أن نلمح هذه العلامةَ الرائعةَ على قميصه المائل لونه إلى الصُّفرة.

وضعه حارسُ الغابةِ على سريره، ودخلت شينتزي بهيئةِ مَن يعرف بأمرِ النزال، وحين اقتربت من السرير بصق السيد وو يو بصاقاً مشوباً بالدم صوبها، ففكت إزاراها وانحنت بحذرٍ لتمسحَ آثارَ الدمِ عن زاويةِ فمه. كان حارسُ الغابةِ مفعماً بالتأثر أثناء روايته وقال: لم أرَ في حياتي فتاةً ساحرةً مثلها، إنها حقاً ذكية.

لم يكن السيد وو يو ذا مكانةٍ خاصةٍ في القرية رغم امتلاكِه لحجرةٍ مليئةٍ بالكتب. وقد أصابَ الأطفالَ مرضٌ يُدعى "الريحُ الرَّطْبَة"، وكانت الطريقةُ الوحيدةُ التي يُعالجونهم بها هي تجفيف طين النهر في الفرن وجعله وساداتٍ لهم، وحاول السيد وو يو جاهداً نُصحَ أهالي القرية بأنَّ نوعاً من الأعشابِ يعالجُ هذا المرض، لكنَّ أحداً لم يصدقه، وبعد استنفاده لمحاولاتِ إقناعهم، ضرب لهم مثالاً مفاده أنَّ الثورَ والأبقارَ لا تمرض لأنَّها تتناول الأعشابَ دائماً، وهكذا وافقوا على أن يحاولَ معالجةَ الأطفال، ونتيجةً لذلك أصبح العلاجُ بالأعشابِ سبباً في تحوِّلِ معبده في ليلةٍ إلى مستشفى.

4

أثار حرق كتبه شكوكَهم حول مهارته الطبية، لكنَّه كان شخصاً ذا ذاكرةٍ مذهلة، يحفظُ محتوىً ضخماً من الكتبِ المحروقة، الأمرُ الذي كان سبباً في استمرار عيادته، وأثار تجاهه أيضاً شعوراً بالغموض.

كانت شينتزي والسيد وو يو متلازمين كإنسانٍ وظله، وقد اختلف الناس في أمر علاقتهما، إلى حدِّ أنَّ البعض رأى أنها علاقة مريبة. كانت شينتزي تغادر المعبد كل يوم في ساعة متأخرة جداً، ولأنَّها تعبر أحراجاً لتصل إلى منزلها، كان السيد وو يو يرافقها في دربٍ منيرٍ عبر الأحراج. وشيئاً فشيئاً حظيا بحبِّ أهالي القرية الذين كفوا عن النبشِ في أمرِ علاقتهما، ورأوا أنَّ كلَّ شيءٍ يسيرُ في مناخٍ يسوده الانسجامُ والقداسة. على أنَّ أهالي القرية لم ينسوا عمدتهم، الذي لم يكن عمدةً لأنَّه يعرفُ كيفيةَ الوقايةِ من حرائقِ الغاباتِ أو فنَّ الباكوا، بل لمتانةِ عضلاتِه وجبهتِه العريضة. إنَّه

أسدٌ وسيم، هكذا تقول نساءُ القرية. وبعد أن توفى هذا العمدةُ بسببِ مرض الزحار قال لي أحد المُسنّين: رغم أنَّنا أحياناً كنَّا نعلمُ أنَّ ما يقوله محضُ خداع، لكننا بكينا تأثراً.

جاء إلى القريةِ شخصٌ غريبٌ وكنس قطعةَ أرضٍ ثلجية لعرض أكروبات القرود والسيرك، وكان السيد وو يو وشينتزي بين المتفرجين. ورأى الناسُ أنَّ العمدةَ ينظرُ إليهما بابتسامةٍ يشوبها الغضب، ثم قال بصوتٍ عالٍ مُتشدِّقاً: سأقتلكما! ولم يسمعه الشخص الذي كان إلى جانبه، لغرقِه في نوبةِ ضحكٍ على حركاتِ المهرج. لكنّ أخي - بعد أن سمعه - اندفع راكضاً إلى المنزل، وقد أخبرني بعد الواقعة أنه سارع إلى المنزل وكأنَّه يطير، وما أن فتح الباب حتى سقط عند الصالة وقال صارخاً قبل أن ينهض: "العمدةُ سيقتلُ شينتزي والسيد وو يو..." لكنَّ أمي - مثل جميع النساء في القرية حين ينهمكن في خياطةِ نعالِ الأحذية - كانت غارقة في حالٍ من الشاعرية. ولعلَّها لم تسمع بوضوح ما قاله، إذ أجابته بغمغمات.

وبمرور الأيام، اخضرَّت أغصانُ أشجارِ الصفصافِ التي تنمو بين حينٍ وآخر عند السور المُهدَّم لبيت العمدة، وعبر أحراج القصب عند ضفتي النهر، بدت أعشابُ الوادي الجبلي الذي يُرَى من بعيدٍ مفعمةً بالخضرة، وشاعت بين أهالي القرية أقوالٌ عن قتل السيد وو يو لشينتزي، ولم يشك أحدٌ في صحةِ الأقوالِ على الإطلاق لأنَّ وو يو اعترفَ اعترافاً صريحاً. وجاء إلى القريةِ طبيبان شرعيان متدربان، وكانت تلك المرَّةَ الأولى التي يُشرِّحا فيها جسداً بشرياً.

وضعا شينتزي العاريةَ على طاولةِ تنس الطاولةِ ثلاثيةِ القوائم، وكلٌّ منهما يحملُ ساطوراً لذبحِ الخنازير. بدت مُسجاةً بسكونٍ كما كان الناسُ

يرونها طافيةً على المياه في الصيف بوجهٍ متوردٍ نابضٍ بالحياة. وبدا الطبيبان المتدربان حائرين من أين يبدآن. استغرق تشريحُ الجثةَ يوماً كاملاً، وشُوِّهَت وقُطِّعَت إلى أجزاء، وكان التقريرُ في النهاية: شينتزي خُنِقَت أثناءَ اغتصابِها.

5

كان عملُ الضباطِ غايةً في الإتقان، إذ ملأت الفتاةُ كراسةً بعرض 30 سم وبطول 40 سم، وبارتفاع 50 سم عن آخرها. وذاتَ يومٍ زاروا الشابَ كانغ كانغ الذي نفذَّ إعدامَ السيدِ وو يو.

كان الشاب قد علِم من أحد القضاة أنَّ الإعدامَ سيُنفذُّ غداً، فقرر أن يُصلحَ مسدسَ صيدٍ ثنائي الفوهة ورثه عن أجداده. كان المسدسُ حين تناوله من مكانِه معلَّقاً على الجدار، في غرفةِ نومِ والدتِه التي استيقظت، وكان السيد وو يو قد عالجها من الشلل. وحين رأت ابنها يلمسُ المسدسَ - المغطَّى بطبقةِ غبارٍ كثيفةٍ لتعليقه على الجدار منذ أكثر من ثلاثين عاماً - سألته: "أَذاهبٌ للصيد؟" لكنه غادر من دون أن يجيبها.

نظَّفَ كانغ كانغ المسدسَ ثلاثَ مرَّاتٍ بعناية، وذهب إلى الحدّاد ليُصلح انحناءً فيه مقداره 30 درجة ويجعله مستقيماً، ثم لقَّمه بالبارود والطلقات واتجه إلى جانب النهر مصوباً المسدسَ إلى ماعزٍ وأصابت الطلقةُ الأولى بطنها بثقبٍ أسودٍ ثخين، فابتسم راضياً.

حين انطلقتُ مع أخي صباحَ اليوم التالي من الباحة الخلفية إلى مكان إعدامِ السيد وو يو، صادفنا امرأةً مربوطةَ القدمين[5]، تسير في الطريق

(5) ربط القدمين: عادةُ ممارسةِ الربط المحكَم لأقدامِ الفتياتِ الصغيراتِ لتعديلِ شكلِ وحجمِ أقدامهن.

بخطىً سريعة كأنَّها تسيرُ على سيقانٍ خشبية. وقد سمعنا حقيقةَ الجريمةِ من هذه المرأةِ بعد شهرٍ من إعدامه: عانى زوجها من صداعٍ شديدٍ في مساءِ اليومِ الذي حدثت فيه الواقعة، فأخذت طيَّةً من الورق وذهبت إلى تلال المقابر في الأحراج لتحرقها، وحينئذٍ رأت عمدةَ القريةِ يُثبت شينتزي العائدةَ إلى منزلها نحو الأرض. كان يفصلها عنهما نحو عشرين خطوة. قالت إنَّها كانت ليلةً هادئة، ينشرُ فيها النسيمُ رائحةَ أوراقِ القصبِ المنعشةِ المُسكِرة، والأحراجُ تتسربلُ بسرابٍ حليبي، وهالاتٌ من الجمال تغمرُ القمر. وقالت أيضاً إنَّها حين رأت العمدة ينزع عن شينتزي ثيابها ولباسها الداخلي الأبيض بكت بحرقة. وظلت المرأةُ حائرة، ضائعةً في اضطرابها بعد شهرٍ من موت شينتزي، ورأت أنَّها ستُجنُّ لا محالة إن استمرت هكذا. وفي صباح اليوم الذي ركضت فيه الزوجةُ الشابةُ وهي تهتفُ في أرجاءِ القرية، اندفعت بجنونٍ إلى مكانِ الإعدام، فلم يكن بوسعها الاستمرارُ في إخفاءِ الأمر، وعزمَت على كشف الحقيقة.

راح مطرٌ خفيفٌ يهطل باعثاً الضجر في نفوس الناس. كان كانغ كانغ يصوِّبُ المسدسَ نحو السيد وو يو بإشارةٍ أحدِ القضاة، وحين أصدر الأمرَ ملوّحاً إلى الأسفلِ برايةٍ حمراء، ضغط كانغ كانغ الزنادَ وانطلقت طلقةٌ عَرضاً، وأحدث الكبريتُ المحترقُ لطخةً سوداءَ على صدرِ قميصِه ناصع البياض، فبصق بشراسةٍ ثم لقَّم المسدسَ من جديد. كان السيد وو يو خائفاً، وحاول جاهداً أن يتكلَّم، لكن لسانَه كان قد قُطِع قبل شهر، فبدأ يلوِّحُ بإشارات. وفي تلك اللحظة، اندفعت الطلقةُ من مسدسِ كانغ كانغ.

دُفنَ السيد وو يو قبل وصول المرأةُ ملطَّخةً بالوحلِ إلى مكانِ الإعدام، ورأتْ دماءه وعدّةَ شَعراتٍ منه متناثرة على الأرضِ كشَعرِ الخنزير.

كان المطرُ لا يزالُ يهطل، ومن بعيد ظهرَ موكبُ عائلةِ عروسٍ في أزياءٍ ملوَّنةٍ يحتفلون ويختفون في الضفةِ الأخرى للنهر.

القاربُ الضائع

في اليومِ الحادي والعشرين من شهر مارس العام 1928، ظهرت فجأةً قوةٌ طليعيةٌ لجيشِ الحملةِ الشماليةِ على ضفتي نهر لان جيانغ، واستسلمت السّريّة 31 لتسون تشون فانغ بغيرِ قتال، وسيطر جيشُ الحملةِ الشماليةِ بسرعةٍ على يو غوان، وهي بلدةٌ ذاتُ موقعٍ استراتيجي تربط بين نهر لان جيانغ ونهر ليان شوي، وبينما يحشدُ تسون تشون فانغ أعداداً ضخمةً من القوات، كان يحركُ القواتِ الخاصةَ لتربضَ عند جبال تشي قريباً من نهر ليان شوي وتحتلَ الموقع. فيما توغّلَ قائدُ السّريّة 32 لحاميةِ جبال تشي بقرية شياو خي على الجانب الآخر للجبال ذاتَ يوم، واختفى أثره فجأةً بعد أسبوع. وقد ألقى اختفاءُ القائدِ شياو ظلالاً غامضةً على المعركةِ التي بدأت بعد عدةِ أيامٍ في الموسمِ الماطر.

مقدمة

تلقى شياو أوامرَ سرِّيَّةً من قائد أركان السّريّة صباح اليوم السابع من شهر إبريل، إذ أُمِر أن يقود السّريّة 32 إلى قريةِ شياو خي المقابلة لجبل تشي، تلك القريةُ التي يسكنها بضع عشراتٍ من الفلاحين وحسب، وتشبه قرنَ

ثورٍ بارزٍ عند مصب نهر ليان شوي المتعرِّج، ولذلك شكَّلَت موقعاً دفاعيّاً مثاليّاً. وحسب أوامر هيئة أركان السّريّة فإنّه وجَبَ على شياو دخول القريةَ صباح اليوم التاسع، وأن يجمعَ ما استطاع من معلومات في أسرع وقت. وقد نبهه قائد أركان السّريّة قائلاً: رغم أنَّ هيئتنا اكتشفت هذه المنطقةَ الغامضةَ المكشوفة، لكنَّ هذا لا يعني أنَّ جيشَ الحملةِ الشماليةِ لن يضعه في الحسبان كذلك. وعشيةَ استعدادِ شياو للانطلاق بالزورق حدث ما هو غيرُ متوقع.

كانت أشعةُ شمسِ العصر القائظة في اليوم الثامن من شهر إبريل تبعثُ على النعاسِ والخمول، وكان شياو يتقدم بحصانه عبر أشجار الصفصاف عند ضفة نهر ليان شوي. وأثناء مروره بخيامٍ عسكريةٍ تبهرُ الأنظارَ في قاع الوادي عند المنحدر الشمالي لجبال تشي، تبعه حصانٌ كميت.

جذب الضابطُ الحارسُ لجامَ الحصانِ وأمالَه إلى يسارِ شياو. لم يكن قادراً على فتح عينيه بالكامل في مواجهةِ الشمس، وانتصب بقامته قبل أن يكبحَ حصانه، ومرَّرَ يدَه اليمنى على حافةِ قبَّعتِه قائلاً:

"هناك عجوز تنتظرك في مقرِ اللواء".

تقدَّمَ شياو بثباتٍ بضعَ خطواتٍ قبل أن يشدّ لجامَ حصانِه. كان الطقسُ حاراً، والنسيمُ الباردُ من قممِ الجبالِ يهبُّ ويعبرُ فوق رأسِه، والهواءُ في قاعِ الوادي جافاً وراكداً. وقف الضابطُ في مكانه تاركاً قطراتِ العرقِ تنزلقُ على وجهه دون أن يجفِّفَها، محدّقاً في ذهول إلى شياو في انتظارِ إجابتِه.

لوَّح شياو بنفاد صبر قائلاً: "جِدْ طريقةً واصرفها".

لكنَّ الضابطَ جذبَ الحصانَ وتقدَّمَ بضعَ خطواتٍ ثم قال بصوتٍ خفيضٍ راجِف: "لقد قالت إنَّها قادمة من قرية شياو خي".

نظر شياو إليه دون اكتراث ولم يُجب. وكان قد اندفع بحصانه صوبَ السّريّة، يتبعه الضابطُ خلال الغبار الذي أثاره بمسافة عشرة تشانغ. كانت الحرب قد أضجرته من تلك الأمور التافهة، إذ يعلَم أنَّه بسببِ ضحايا الحرب، فقد بات أمراً عادياً ظهور أهالي الجنود في مقر القيادة، وأن تطلب تلك الوجوه الغريبة التي تحملُ قصاصاتٍ دُوِّنَ فيها اسمُ الابنِ أو الزوجِ مطالبَ سخيفة: أن تأخذ متعلقات المتوفّى أو تسأل عن اللحظات الأخيرة للجنود قبل أن يلقوا حتفهم. ولأنَّ هذا الجيشَ الذي بلا اسمٍ أو رمزٍ لا يحتفظُ بسجلٍ للجنودِ المتوفين، فقد كان هؤلاء الناس المساكين ينصرفون خائفين بعد زجرِ ضابطٍ صغير أو تهديدِهم بكعبِ البندقية. ورغم أنَّ السّريّة التي خدمَ فيها شياو هي قواتٌ موثوقة، لكنَّه كان مجبراً في أغلب المعارك على القتال في المواقع الأمامية في ظلِّ شُحِّ الإمدادات. يتغيرُ الجنودُ بالكامل تحت قيادته أحياناً كتعاقبِ الليلِ والنهار، كما جُنِّدَت مؤقتاً مجموعةٌ من الفلاحين ـ سبقَ أن استخدموا البنادقِ ـ لإنجازِ مهمةِ القنصِ الأكثر صعوبة. وفي هذا الأصيلِ الهادئِ تقريباً وكحالِه دائماً، استحوذَ عليه هاجسٌ مُنذرٌ بالشؤمِ بشأنِ تلك الحربِ القادمة.

تعرَّفَ بنظرةٍ واحدةٍ على الخاطبةِ العمّةِ ما سان - العجوزِ القادمةِ من مسقطِ رأسِه - ما إن دخلَ مقرَ القيادةِ يحملُ سوطه. كان قد رحل عن المنزل للانضمام إلى الجيش منذ عدة سنوات فقط، فبدت تلك المرأة الفاتنة الوَدود المفعمة بالحيوية وكأنَّها شاخت فجأة، وكانت العمة ما سان قد أثارت نزاعاتٍ لا تنتهي بين النساء في القرية لتأثير إغرائها وكرمها على شبابها. وأصبحت دائماً حلقةَ الوصلِ بينه وبين ذكرياتِ مسقطِ رأسِه في الفجوةِ التي أحدثتَها الحرب.

جاءت حاملةً له خبرَ وفاةِ والده.

أشعل والده النار في الفرنِ ذات مساء، وذكَّره الدخان المرتد الذي هيَّج أنفه أنه لم ينظف المدخنة منذ مدة طويلة، فصعد الشيخ - الذي عمره سبعون عامًا أو ثمانون - مترنحاً إلى سطح المنزل، حاملاً عودَ بامبو ملفوفاً بالقش، لكن بعد تعثره في ثلاث قطع قرميد وعارضتين خشبيتين مهترئتين سقط ومات في خزان الماء في المطبخ. خيَّمَ على شياو هدوءٌ طاغٍ بعد أن سردت العمةُ تفاصيل وفاة والده بطريقة فكاهية وبصوت حاد. لم يباغته أي خوفٍ أو حزن. لاحت في ذاكرته ومضاتٌ قصيرةٌ من حياةِ والده، فطلب سيجارةً من الضابط الحارس. ارتجفت أصابعه عند إشعاله الكبريت، لكنَّه يعلم أنها لا ترتجف بسبب الحزن بل بسبب الحرمان من النوم. وحين سار شياو إلى شجرةِ حورٍ عتيقةٍ وفكَّ لجام الحصان المربوط إليها متجاهلاً الآخرين، سمع صوتَ خطواتِ أقدامٍ تدوسُ العشبَ خلفه، كان الضابطُ يتبعه بقلق، فحدَّق إليه شياو بنظراتٍ حانقةٍ أجبرته على التوقفِ في مكانه.

تهبطُ ظُلمةُ أولِّ الليل، وشياو يمتطي حصانه وحيداً ويرتقي تلةً منخفضةً في جبال تشي عبر منحدرٍ شمالي. وأشعةُ الشمس اللامعة تظهر في الفترات الفاصلة بين الأيام الممطرة. كسا الغسقُ الكثيفُ الأكواخَ الريفيةَ المختفيةَ على الضفة المقابلة لنهر ليان شوي بلونٍ برتقالي، وتفتحت الزهورُ البريةُ في دربِ الوادي الضيق الطويل. عمَّ السكونُ الأرجاءَ الشاسعة. مضى يسترجعُ ذكرياتٍ وخرابَ قصفِ المدافع، فدهمته رغبةٌ عارمةٌ في كتابةِ الشعر. كان والده أحد الناجين القلائل من جمعيةِ السيوفِ الصغيرة[6]،

(6) جمعية السيوف الصغيرة: كانت منظمة سياسية وعسكرية نشطة في شانغهاي والمناطق المجاورة أثناء تمرد تايبينغ بين العام 1840 و 1855.

ومن أحدِ القادةِ المتمرسين في استعمالِ الأسلحةِ الغربية، وخبرتُه في الحروب ومجموعةُ الكلاسيكيات العسكرية الكبيرة الخاصة به المفقودة بين الناس جعلت شياو محاطاً منذ صغره بأجواء الحرب. كان يسمعُ في أحلامه دائماً صهيلَ الأحصنةِ ودوي دانات المدافع، إلى أن سألَ والدَه ذاتَ يومٍ عن السبب الذي جعله ينضم إلى فريقٍ خاسر، أتت إجابةُ والدِه لا مباليةً رغم أنَّه بدا وكأنَّ أحداً لكزَ منهُ موضعاً مؤلماً: لا يوجد جيشٌ خاسر أو جيشٌ منتصر، بل ثمةَ ذئابٌ وقناصون. كانت والدتُه امرأةً متزنةً حصيفة، لكنَّ استمرارَ الحرب ونُضجَ أطفالِها فجأةً أصبحا مصدرَ قلقٍ بالغ لها، فلم تعُد تهنأُ بنومٍ ولا طعام. وعشيةَ ذهابِ أخيه الكبير إلى أكاديمية هوانغ بو الحربية، بكت والدتهما بكاءً مُرّاً، ووبَّخت زوجَها على تساهله وعلى تنبؤاته السخيفة بشأن الحرب وإرسال ابنه إلى طريق الهلاك.

أصبحت فجأةً حادّة السلوك ومتسلّطة. حبسَت أخاه الأكبر الهزيل مع عنزتين ثلاثةَ أيام، وفي وقت متأخر من الليلة الثالثة سرق شياو مفتاحَ باب السياج الخشبي الصلب، ورحل أخوه في ضوء القمر من دون أن يقول له أيَّ كلمة، وكان والداهما نائمين في تلك الأثناء. فيما بعد، قلقت والدتهما أن يسير شياو في نفس طريق أخيه، فاستأجرت قارباً وأرسلته إلى بلدة يو غوان الصاخبة ليتعلَّمَ الطبَّ من ابن خالها. كان هذا في صيفٍ قائظ. وثمةَ خبرةٌ قد تراكمت عبر المتاعب التي مرَّ بها بعد هروبِ أخيه الكبير. وحين تهيأ شياو ليُجنَّدَ ضابطَ خدمةٍ في إحدى هيئات تسون تشون فانغ، عاد إلى القريةِ ببدلةٍ مُنشَّاة، وقد دفع وداعه الصامت لوالدته إلى الظن، وكانت مخطئة، أنَّه ذاهبٌ إلى موعدٍ مدَّبر في القريةِ المجاورة.

كانت العتمةُ تهبط. ونسيمُ الليلِ المنعشُ يرطِّبُه ماءُ نهر ليان شوي.

وحصانُه الأبيضُ يعدو على قمةِ الجبلِ باضطراب، وحوافره تنصلُ الأرضَ تحته، والقريةُ البعيدةُ تغرقُ في العتمة. تذكّر أثناء وثْب حصانه نازلاً التلةَ تقريرَ الحرب الذي سمعه في اجتماع الهيئة قبل أيام: أنَّ جيشَ أخيه هو مَن احتلَّ بلدةَ يو غوان في اليوم الحادي والعشرين من شهر مارس.

اليوم الأوّل

عبرَ شياو والضابطُ الحارسُ النهرَ مع بزوغِ الفجر، وسمعا لدى وصولهما إلى الضفةِ المقابلةِ الصياحَ الأولَ للديكةِ في القرية. دفع شياو بالقارب الصغير بين أغصان شجيرات شبِّ الليل المتهدلة الكثيفة، إذ كان مكاناً مناسباً لإخفائه. تدفعُ مياهُ النهرِ المتدفقةُ القاربَ بخفة، وحلّق طائرٌ مائيٌّ أسودُ سريعاً بمحاذاةِ الشاطئ. أحسَّ شياو بشيءٍ من البرودة أثناء وقوفه أسفل الكروم المتلألئة بالندى، ودفعهُ عبقُ الزهور الكثيفة ورائحةُ المياه للاستغراق في أحلامِ يقظةٍ ساحرةٍ هادئة. لم يتوقع مطلقاً الكارثةَ التي ستجلبها له هذه القريةُ الجميلةُ فيما بعد.

عبر شياو أحراج البامبو الكثيفة إلى أن دخل إلى قريته التي يألفها. كان الهلال غارقاً في الغرب، وظهرت مجرة درب التبانة توّاقة إلى الفجر في الشرق. لم تتعرف عليه النساء اللواتي يملأن الماءَ من البئر، وبين حينٍ وآخر يمرُّ به بعض العجائز المستيقظين باكراً، يسعلون ويختفون في الضباب. كان أهالي القرية قد فقدوا الفضولَ تجاه أيِّ شخصٍ غريب، ولم يعودوا مَهتمين إلَّا بمنافيخِ القدور، وأقواسِ غزلِ القطن، وألحانِ ناي بائعِ سُكَّرِ الشعير، ولم ينتبه أحدُ إلى شياو أثناء عبوره تلك الأزقةَ الطويلةَ الضيقةَ والأكواخ، بل أثارَ فقط نباحَ كلابٍ مستمراً تقشعرُ له الأبدان. سرت في

نفسه موجاتٌ من الاضطرابِ التي سرعان ما هدأت لسكرتِه برائحة زهور الخوخ وشتلات القمح المنعشة.

بدا بابُ منزلِه الواقعِ في أقصى غربِ القرية من بعيدٍ مغلقاً، لكنَّه حين اقترب رأى شارةَ الحدادِ السوداءِ المعلَّقةِ على البابِ المفتوح. فزعت والدته التي كانت تحمل في يدها مصباحَ كيروسين من ظهور الظلَّين الأسودين حين أبعد الشارةَ السوداءَ ودخل إلى الباحة، لكنها كانت لا تزال تقبضُ بشدةٍ على المصباح، وحين ميّزت ابنَها الذي نمت له لحيةٌ جميلةٌ ألقت بالمصباحِ إلى بالوعةٍ تبعد عنها تشانغ واحد. تأملته والدتُه لدقائق وأدركت أنَّ ابنَها تغيَّر تماماً. كانت نظراته تشبه نظرات زوجها قبل وفاته وعيناه الغائرتان منطفئتان. وعادت الهواجسُ التي دهمتها حين هوى زوجها في خزان الماء وباغتتها من جديد. أحرقت ثلاثَ رُزمٍ من الورقِ الأصفرِ حين قادت ابنها إلى غرفةِ الحداد، ليس نعياً لزوجها بل لتخفيف كرب ابنها. ركع شياو أمام تابوتِ والده. لم يُنغِّص جو غرفةِ الحدادِ المهيبةِ سكينتَه، ففي رأيه فقد مات والده منذ اختفت مجموعتُه تلك وعاش منعزلاً في منزلٍ ريفيٍّ عند حوضِ نهرِ ليان شوي. وكان الأمرُ الوحيدُ الذي شَعَرَ بالذنبِ حياله هو خداعه وإهانته لوالدته قبل رحيله عن المنزل. أطالَ النظرَ إلى كتفي والدته النحيلتين، وأدركَ فجأةً وكأنَّه أفاقَ من حلمٍ عميق، التغيُّرُ الذي تركته الحربُ فيه. ودهمه شعورٌ وكأنَّ ريشةً رفيعةً تنكزُ الذكرياتِ المدفونةَ عميقاً في قلبِه، وسرعان ما تلاشى هذا الإحساس، فنهض وأخذ نفساً عميقاً من الهواء المُشبَّع برائحةِ البخور والورق الأصفر المحروق.

انتبهت والدتُه إلى شعره المبعثر وملامحِ وجهه التي شاخت، فأعطته مشطاً خشبياً وشفرةَ حلاقة وأجبرته على تشذيب لحيته. سألها شياو وكأنَّه

يفكِّرُ في أمرٍ ما، عن خلو غرفة الحداد، فقالت إنَّه بالكاد كان يخرج في نصف حياته الثاني، وإنه لم يكن يحب الاختلاطَ بالعامة. كما لم تصِلْها أيُّ أخبارٍ من الأقارب البعيدين والقريبين بسبب الحرب. وقد دخلت الغرفة والباحة الخلفية الخاويتين في عيد التاسع المزدوج فقط لتصطادَ فأراً، وربما نمت الأعشاب والطحالب من الأرضية الرطبة الآن. لم يُلقِ شياو بالاً لدموع والدته أثناء حديثها، وسألها من جديد عن ترتيبات الجنازة، فظلَّ سؤاله بلا إجابةٍ لمدةٍ طويلةٍ وكأنَّها لم تسمعه. أخذ شياو نفساً عميقاً وخَلُدَ إلى الصمت.

كان هذا أطولَ حديثٍ مع والدتِه.

بعد الظهر فتَّش شياو والضابطُ الحارسُ كلَّ زاويةٍ في القرية ولم يعثرا على أي شخص غريب، وكان مبتهجاً في سره كون جيش الحملة الشمالية لم يكتشف هذه القرية النائية شمال نهر ليان شوي، والتي لم تغزُها نيرانُ الحربِ على الأقل منذ ألف عام، وكان أهلها موقنين أنَّ هدوئها وسكونها سيمتدان بعيداً مثل نهر ليان شوي المتدفقِ بسكونٍ يوماً بعد الآخر. كما أنهم لم يستشفوا العلاقة بين نباح الكلاب في الصباح الباكر وهذين الغريبين والحرب. وعلى وقعِ أصوات حوافر الماشية التي يرعاها الصبيةُ عند المغيب والظلال أسفل أفاريز البيوت التي تمتد شيئاً فشيئاً إلى جانب البئر، كان الناسُ يحكون قصصاً لم تتغير طوال سنين. عند المغيب، همَّ شياو بالذهاب إلى نهر ليان شوي لتقصي التضاريس المحيطة، فأخبره الضابطُ الحارسُ أنَّ هناك راهباً طاوياً مجهولَ الهوية يجلس في منتصف بيدر درْس الحبوب مروحيّ الشكل، وأنَّ أعدادَ الناس تتزايد لمهارته الدقيقة في قراءةِ الطالع.

حين شقَّ شياو والضابط الحارس طريقهما عبر الزحام، أفسح لهما

الناس مكاناً في البيدر كلفتةٍ نابعةٍ من احترامِ الغرباء. كان الراهب يتنبأ بالكارثة التي ستحل على القرية، وكلامُه غيرَ واضحٍ بسبب فقدانِه أسنانَه كلِّها، وقميصُه المرقّع ملطخاً بطبقةٍ سميكةٍ من الشحم، وثمة علمٌ أصفر بالٍ مغروسٌ أمامه، ونظراً لارتشاح الحبر، فقد بدت الرموز (巽[7]、震、兑、爻) باهتةً لا تُرَى. جلس الراهب متصالب الساقين وإلى جانبه عظام سلاحف وجلود أفاعٍ وضمّادات، وعجلتان دوّارتان وجاروفٌ خيزرانيٌّ يتناثرُ منه دُخْنٌ أصفر.

استغرق الراهب فترة قصيرة في التأمل، ثم غمغم بكلام لم يفهمه أحد، وأشار بيده إلى الفلاحين الخاشعين الذين ينتظرون معرفة مصير قريتهم: السرطان يسبح إلى جنوب نهر اليانغستي، الحوت إلى الشمال، الجدي إلى آن شي، والعذراء تتزوج الشرق. لقد انتهت الحرب.

ارتسمت على خد شياو ابتسامة ساخرة لا تُلاحَظ، إذ رأى أنَّ الناس دائماً تعيش في الأوهام، وبالنسبة له، فقد بات المستقبل يمتد إلى الحاضر بهدوء، وأنَّ الحرب قد بدأت، كما أنَّ شفقته تجاه أهالي القرية لم تُبدد ظلالَ الحيرةِ التي يشعرُ بها في نفسِه، كان هو أيضاً يعيشُ في أوهام. حين وطأ القاربَ الغارقَ في ضباب الفجر متطلعاً إلى القرية النائمة، دهمه تأثرُ مبهم. لم يعلم هل كان متلهفاً إلى العودة بسبب وفاة والده، أم لأنَّه اشتاق إلى والدته، أم لأنَّه متشبثٌ بذكريات تلك القرية التي عاش فيها طفولته. شعر كما لو أنَّ قوة هائلة وساحقة تدفعه.

غادر الناسُ تباعاً من البيدر فيما العتمةُ تهبطُ شيئاً فشيئاً. رأى شياو أنَّ

(7) الرموز الثلاثة من ناحية اليمين هي أحد الرموز الثمانية للتنجيم، والرمز الرابع يشير إلى الخطوط التي تصل بين الرموز.

الراهبَ لا يشبه جاسوساً لجيش الحملة الشمالية، فألقى له عملةً نقديةً بلا اكتراث وهو يجمع أشياءه ويرتب صرته، لكنّ الأخيرَ لم يلقَ بالاً لتلك العملةِ المتدحرجةِ بلا صوتٍ على الأرض، ولم يتوقف عن جمع حاجياته كذلك. ألقى نظرةً على شياو وقال: هل الزبون لديه رغبةً في قراءةِ الطالع، زواجٌ أم ثروة؟

الحياةُ والموت.

قال شياو ثم أشعل سيجارة، متأملاً عبرَ شجيراتِ نباتِ النيلةِ القصيرةِ حُجَبَ السراب الغائم الذي يهبط على نهر ليان شوي البعيد. كان الظلام قد حلَّ والراهبُ يقرأُ على أصابعِه تاريخَ وبرجَ ميلاده.

انتبه إلى كأسك.

غمغم الراهب.

في مساء ذلك اليوم، جاء الضابطُ الحارسُ بزجاجتين من نبيذ الأرز وعلبةٍ من لحمِ البقر. وكالعادة، وضع الضابطُ عودي طعامٍ أمام شياو وكأسَ خمرٍ خزفية، وجلس إلى جانبه مُرخياً يديه على حافة الطاولة. وضع شياو الكأسَ أمامه وصبَّ النبيذ، وأشعل هو سيجارة.

طرف الضابطُ برموشه الطويلة وكأنَّه فتاة، واسترَقَ نظرةً إلى رئيسه، ورفع الكأسَ بتردد. ورأى شياو عبر عيني الضابط وميضَ نظراتِ الراهبِ الخبيثة. وفكَّرَ شياو أنَّ الضابطَ قد استشعرَ خوفَه. ورغم أنَّه صبيٌّ لم يختبر الحياةَ بعد، لكنّه أحسَّ بقلقٍ وكآبةٍ يتعذَّرُ كبحهما.

حَين دخلت والدته، رأى شياو خلفها امرأةً جميلةً تدخل مسرعةً إلى الظلمةِ الكئيبةِ لغرفةِ الحداد.

اليوم الثاني

أثارت المرأةُ التي اختفت خلف والدته في اليوم السابق أفكاراً متلاحقةً في ذهنه، فأخذ نفساً عميقاً وكأنَّ رائحةَ فاكهةٍ منعشةٍ عبَّقت نسيم الصيف الحار. وحين رآها في اليوم التالي بعد انتهاء مراسم جنازة والده عرف مَن هي.

في ذلك المساء استغرق شياو في النوم وسط ضجيج البكاء في غرفة الحداد، لكنه استيقظ مذعوراً بعد منتصف الليل على نغمات الـ هوتشن. ولأنَّ وقتاً طويلاً قد مرَّ منذ أن توفي أحد في القرية، فإنَّ عازفي الموسيقى الجنائزية فقدوا انسجامهم السابق، وبسبب قلة ممارستهم لم يعزفوا غيرَ أصواتٍ صاخبةٍ متقطعة. جلس شياو على السرير وجعلته النغمات المتنافرة يعطسُ عطساتٍ متواصلة. رأى شياو عبر نور القمر المتسرب من إطار النافذة البالي عقاربَ ساعةِ جيبه تشيرُ إلى الثالثةِ صباحاً. وحين بدأت الجنازة رسمياً سارَ شياو خلف العازفين، ولم يكن قد أفاق من نومه بعد. حجبت الغيومُ الداكنةُ المُسرعةُ القمر، فأصبحت خطواتُه متعثرةً بعض الشيء. كانت رائحة الشوك والعشب الأخضر تتكثَّف حوله. نظر إلى ظلِّ الجبل البعيد المتسربل بالضباب، واسترجع ذكريات الصيف الحار الذي قضاه في منزل ابن خال والدته.

بسبب انضمام أخيه المفاجئ إلى الجيش، وتهديدات والدته، استقلَّ قارباً عابراً إلى بلدة يو غوان عند ملتقى نهري ليان شوي ولان جيانغ ليدرسَ الطب عند ابن خال والدته. كان رجلاً طيباً، وطبيباً متخصصاً في الطب الصيني يقضي معظم وقته متنقلاً في القرى. توفيت زوجته أثناء الولادة، ولمعاناته في أن يجدَ أحداً يعتني بابنته، فتح صيدليةً أخرى في يو

غوان في الشارع القريب من النهر. غرق شياو في الأيام الأولى لوصوله القرية في حالة من القلق والسأم، تجذبُ اهتمامَه الغامضَ فقط رسوماتُ الجسدِ البشري أحياناً، بينما يجلس في حجرةِ بيتٍ مشيَّدٍ من الخيزران قريباً من النهر يطالع كتبَ الطب التي بهتت واصفرَّت أوراقُها.

وفي أشعة شمس الصيف الحارقة، يرنو ببصره عبر النافذة إلى ظلال المراكب الساكنة على صفحة مياه النهر، وتتناهى إلى سمعه أحياناً أصوات حوافر الخيول السريعة والصاخبة. ومع تمدّد ظلّ الشمس وانحساره، كان الزمن يمرُّ على مهل. وأدرك ابن خال والدته أنه ليس مهتماً بعلم الأدوية وكتب الطب، فجعله يتعلم العلاج بالإبر. في ظهر ذلك اليوم، أظلمت السماء بالغيوم الداكنة، ودوَّى رعدٌ دفعه إلى الجلوس مضطرباً في المبنى. لم يكن قريبه قد عاد من زيارةِ مريض، فشرع يتدرب على يقطينة، وحينها دخلت ابنة ابن خال والدته حجرةَ الدراسة. كانت تبحث عن مظلةٍ ورقيةٍ حمراء. وحين همَّت بالنزول رأت شياو يخزُّ اليقطينةَ وخزةً تلو الأخرى فيما تتناثرُ عصارتُها، فاقتربت منه وشرعت تريه كيفيةَ الوخزِ بالإبر. في اليوم الذي وطأ فيه شياو ميناءَ القرية استقبلته هي ووالدها، ففوَّت فرصةً جميلةً للتعرُّفِ عليها. حتى أنَّه لم ينظر إليها بسبب غضبه من والدته وحرارة الشمس الحارقة. الآن، كانت تلك الفتاة التي تدعى شينغ تحرك الإبرة الرفيعة الفضية بسبابتها وإبهامها وإصبعها الأوسط، فشَعَرَ شياو فجأةً بمرارةٍ في حلقه. لم يكن قادراً على إبعاد عينيه عن تلك اليد البيضاء النَحيلة، وكأنَّ الإبرةَ مغروسةٌ في شريانه، وشمَّ رائحةَ الفاكهة المنعشة التي تشتدُّ كثافتها في الغرفة شيئاً فشيئاً. تبادلت معه شينغ بالكاد بضع كلمات ثم غادرت الحجرة. ظلت رائحتها في الغرفة بعد رحيلها وكأنها تجمدت،

ولم تتلاشَ طوال عزلته الطويلة في هذا الصيف الحار.

حاول ابن خال والدته بكلِّ جهدٍ استناداً إلى خبرته الطبية أن يدرِّبَه، فبعد أن تدرَّبَ شياو أسبوعين على اليقطينة، درَّبه على أرنب، فأحس شياو أنَّ مزاجَه غدا أسوأ، إذ كان هذا الحيوان المتقافز في يده أصعب من اليقطينة. يغرسُ الإبرةَ بكل حذر في رقبة الأرنب ومعدته في حضور ابن خال والدته، وما أن يغادر يغرسُ الإبرةَ كيفما اتفق، وكان يقتل أرنباً كلَّ يومٍ تقريباً. وازدادت تنهداتُ قريبه وهزَّ رأسَه أمامه، فتخلى عن تعليمه الوخزَ بالإبر وجعله يتعلمُ قياسَ النبض، فتعلَّمه شياو في ساعتين، ما فاجأ قريبه.

ذات ظهيرة يوم في أواخر الصيف حين كان ابن خال والدته يستريح في المكتب، جاء شياو إلى باحة مبنى الخيزران. كانت شينغ نائمةً على كرسيّ شيزلونج أسفل شجرة جينكو، والكتاب المفتوح الذي تقرؤه عن حكايات التقويم الشمسي يرتفع وينخفض على صدرها. جلس شياو على مقعد خيزراني بشكل أخرق قربها، وقد أفزعه صوت المقعد وجعله يتصبب عرقاً بارداً. كانت يدها الأخرى مسترخيةً على ظهر الكرسي. كان بإمكانه سماعُ صوتِ تنفُّسِها الثقيل، وصوتِ مجاديفِ القواربِ الطافيةِ على سطحِ النهر. حلَّقت أمامه فراشةٌ متعبَة، فلمسَ برقةٍ أناملَها الناعمة، ثم وضع يده على شريان يدها، وأحسَّ بالدم يتدفق بسرعةٍ تحت بشرتها البيضاء. لن تستيقظ بالتأكيد. هكذا فكَّر.

ولم تستيقظ حقاً.

وفي الحياة العسكرية التي عاشها بعد ذلك، وحين كان يستلقي في الوادي متأملاً نجوم السماء ويمضغ عصارةَ الأعشابِ وأوراقَ الشجرِ المُرَّة، كان تفكيره ينصرفُ بين حين وآخر إلى هذا الوقت الذي مرَّ في الهواء

الخانق لما بعد ظهيرة ذلك اليوم، ويتذكَّرُ المشهدَ الساحرَ لأطرافِ أصابعه تداعبُ بلطفٍ ذراعها الناعم، وتفتحُ أوَّلَ زرٍّ في قميصها، وشعوره فجأةً بأنها ربما كانت مستيقظة. وظلت تلك الفكرة تلازمه منذ حينها.

فاحت الآن تلك الرائحةُ الحلوةُ من جديد.

اتجه موكبُ النعش بعد توقفه في المقبرة إلى تلةٍ منخفضةٍ مزروعةٍ بزهور أشجار الكمثرى. أحسَّ شياو بأنَّ شينغ موجودةً بين الحشدِ المنصرِف، وكأنَّ أفعى ماءٍ باردةٍ تزحفُ على عمودِه الفقري. علم من والدته بعد انتهاء الجنازة أنَّها تزوجت قبل شهر وانتقلت إلى قرية شياو خي، وأنَّ زوجها سان شون طبيب بيطري، هذا الشاب الذي بإمكانه أن يطرحَ بقرةً أرضاً، كان مولعاً بمهنة الطب البيطري. كان قد قرأ "القاموس الطبي" و"مختصر المواد الطبية"، كما تخصَّصَ في "كلاسيكيات الطب الصيني للإمبراطور" الذي لا يفهمه معظمُ الناس، وبعد أن قابل ابن خال والدته في يو غوان، سُحِرَ الشيخُ على الفور بمعرفته العميقة، وحين علم أنَّه نجح في استعمال طرق علاج الإنسان لعلاجِ الحيوانات، شَعَرَ بالأسف لأنَّه لم يتعرَّف عليه من قبل. جلسا في مقهى شاي في ناصيةِ الطريق وتحدثا إلى وقتٍ متأخرٍ من الليل، وقد أسهمت هذه الصدفة في إنجاح هذا الزواج السعيد.

أُنزِلَ نعشُ والدِه على مهلٍ في القبرِ المليءِ بالعملاتِ المعدنيةِ والورقِ الأصفر، وأعطاه مديرُ الجنازات المُسنّ المتكئ على عصا مجرفة، فأهال شياو الترابَ على النعش. ودهمه شعورٌ مفاجئٌ بأنَّ نظراتٍ ناريَّةً مثبَّتةً عليه. مال شياو ببصره والتفت ليرى شينغ ترتدي ملابسَ الحداد وتقف إلى جانب والدته. خلفها الحقول الشاسعة الخاوية، وشجرةُ حريرٍ وحيدةٌ يرتاح عليها طائرُ عقعق وطائرُ صيَّادِ الذبابِ أخضر الرأس.

تفرق المشيعون واحداً تلو الآخر، وغرست شينغ ووالدته بضع شتلات بامبو مرقَّش وشتلةَ شجرةٍ صنوبر. كان شياو يقف إلى جانب حقل سلجم أصفر، وبعث الود والحميمية الهادئة بين والدته وشينغ في قلبه السلوى والعزاء. أخرج من جيبه ولاعة وذهب أمام القبر ليشعل ما تبقى من الورقِ الأصفرِ المرطَّبِ بالندى، والتقط بعصا بقايا الورقِ المنكمشِ في الرماد. هبَّت رياحُ أبريل على بقايا الورق ودحرجت نثاراً من رماد الورق الرمادي إلى شتلة الصنوبر المغروسة عند قدم شينغ، فانحنت وسوَّت تربة الشجرة الجديدة بقدمها، ودفعت برماد الورق إلى التربة، ثم رمقته بنظرةٍ من حيث تدحرج الرماد. كانت نظرةً خاطفة. جلس شياو القرفصاء جانباً ليس ببعيدٍ عنها، وفيما عدا صورة جسدها الممشوق، استحال كل ما أمامَه إلى فراغٍ.

أثناء عودتهم إلى القرية مشت والدته وشينغ أمامه. ربما كان الضابط الحارس نائماً، إذ لم يسمع شياو خطوات الأقدام المألوفة خلفه، ما كان غريباً قليلاً بالنسبة له. اتسعت السماء أمامه فجأة، وأحس أن كل شيء في مرمى بصره.

لم يتحدث أحد، وخلفه، كانت الشمسُ قد ارتفعت للتو.

اليوم الثالث

عادت القرية إلى هدوئها السابق بعد انتهاء الجنازة. ازدادت حرارة الشمس المشرقة شيئاً فشيئاً بعد الظهيرة. كان أوان موسم الركود، فلم تنبت سنابلُ القمح، ولم تتفتح أوراقُ شجرِ الصفصافِ اليافعةِ بعد، أمَّا الفلاحون الذين لا يمكنهم تحمُّل وقت الفراغ فقد شذَّبوا بضجرٍ أغصانَ أشجارِ الخوخ والتوت. كانت القريةُ بعد الظهيرة أشدَّ هدوءاً من ليلها. ذهبت شينغ

إلى أحراج أشجار الشاي لقطف أوراق الشاي قبل هطول المطر. وإذ شكَّلَ ظلُّها النحيلُ نقطةً سوداءَ ساكنةً إلى جانبِ القناةِ اللامعة، عبر أحدهم الجسرَ الخشبيَّ خلف القرية، وسارَ على نفسِ طريقِها إلى الأحراج.

كان يوماً طويلاً وقصيراً في الوقتِ ذاتِه. استيقظ شياو مبكراً جداً كعادته، وحين وصلت العمةُ ما سان إلى باحة منزلهم، كان جالساً القرفصاء يغسل أسنانه بالملح إلى جانب البالوعة. كان الضابطُ الحارسُ لا يزال نائماً، فلم توقظه الجنازةُ وأصواتُ الأبواقِ العاليةِ وصخبُ الناس بسبب إسرافه في الشراب في اليوم السابق. ولأنَّ الحربَ اتخذت الآن منعطفاً مفاجئاً نحو الأسوأ، فقد بات كلُّ جنديٍّ يشعرُ بإنهاكٍ ساحق. وكان شياو صارماً تجاه الجنود الذين تحت إمرتِه في معظمِ الأحيان، فيما جانِبُه الحنونُ مخبأً بعمق. كان في السابق حانقاً وضجراً من هذا الشابِ البليدِ عديمِ الخبرة، ولكن بعد أن رحلت الوجوه المألوفة حوله تباعاً بسبب الحرب، أصبح هذا الضابطُ الحارسُ الذي يتبعه في كلِّ مكانٍ رفيقَه الوحيد في جميع المعارك. وبينما يتحمل بلادته، أدرك في الوقت ذاته أنَّ علاقتَه بهذا الجندي الصامت أصبحت أكثرَ وداً. جاءت العمةُ ما سان لاستعارةِ منخلٍ، وقالت إنَّ مخزون العام الفائت من بذور اللفت أصابته الديدان البيضاء، وإنَّها ستذهبُ به إلى معصرة الزيت بعد غربلته. أخذت المنخل ولم ترحل على الفور، إذ كانت تفكِّرُ في شيءٍ ما لتقولَه لشياو. عادت والدته من الحقل حيث كانت تزيلِ العشب الضار، ومنديلُ رأسها مغطًّى ببتلات الأزهار الرطبة.

انشغلت العمة بالدردشة مع والدته عن زهور الخطمي المتفتحة في الفناء، إلى مدٍّ نهرِ ليان شوي وجزرِه. وكانت العمةُ تنظر إليه من وقتٍ لآخر، ورغم أنَّ تلك الخاطبةَ السابقةَ فقدت جمالَها، لكنّ لمحاتِ نظراتِها

الغامضةِ ذكَّرت شياو بشبابها. وفي خريف العام الذي تزوجت فيه العمةُ مان سان وجاءت من قريةٍ جبليةٍ نائيةٍ إلى قريةِ شياو خي، رحل زوجها فجأةً في مركبٍ عابر، وانقطعت أخباره منذ ذلك الوقت. وزعم أهالي القرية أنه أُعجِب بخادمةٍ تغسل الأطباق على المركب ورحل معها. لكن أحدهم يعرف تفاصيلَ الأمر أخبرها، أنَّ زوجها عجز عن تحمُّل المجاعة التي تزداد شدتُها يوماً بعد آخر فانضم إلى الجيش. وتأكد هذا التخمين بعد ثلاث سنوات حين حمل عدةُ غرباءٍ جثةَ زوجها إلى القرية. وبينما واست نساءُ القريةِ هذه الزوجةَ الشابةَ بالدموعِ، واساها الرجالُ بطريقةٍ أخرى، ولم يمر وقتٌ طويلٌ حتى تخاصمن وأضمرن لها العداء، لكنَّ علاقةَ ودٍّ واحترامٍ جمعت بين هذه الأرملةِ الشابةِ وبين والدته.

يذكر شياو أنَّ والدته كانت تذهب به دائماً إلى مسكنها الصغير الوحيد قرب النهر. ثمة العديد من الأمور بين النساء لا يفهمها شياو. ذاتَ ليلة، كانت والدته تجلس باكيةً أمامها وتسحبُ أنفاساً قوية من السيجارة، وكانتا تتهامسان عن أمورٍ حدثت منذ وقت طويل، وتصمتان أغلب الوقت، تفكِّران في شؤونهما، وتغرقان في نوستالجيا طويلة. كانت أصواتُ حشرات المن عند زاوية الجدار ترافق جلستهما، وأحسَّ شياو بالضجر في صمت هاتين المرأتين القريبتين إحداهنّ من الأُخرى مثل حَمَلين، فاستغرق في النوم على ركبةِ والدته. أيقظهم صوتُ طبولِ الحارسِ الليلي قبيل الفجر. ويذكر شياو بوضوحٍ نورَ الفجر المتسرب على مهلٍ إلى المنزل الصغير، ونهدي العمةِ ما سان تحت قميصها الأخضر مرتخيين على الطاولة حينما انحنت لتطفئَ مصباحَ الكيروسين الذي خفت نوره.

نفضت ما سان بتلات الزهور عن غطاء رأس والدته التي دخلت المنزل.

أخذته العمةُ أمام شجرة مشمش متفتحة عند زاوية الجدار في الخارج، ثم جالت بعينها في الأرجاء وهمست قائلة: سان شون ذاهبٌ اليوم للصيد بعيداً عند مصب النهر، وسيعود بعد يومين.

أنهت العمةُ كلامَها وحملت المنخل ورحلت. شعرَ شياو بخجلٍ شديدٍ، كان قد شعرَ به من قبل حين كانت أمه تمسح جسمه في حوض الاستحمام بعد أن فهم بشكلٍ مبهمٍ العلاقةَ بين الرجلِ والمرأة. إنَّ النساءَ يُبسِّطَن دائماً الأمورَ المعقدة، ويُعقِّدَن الأمورَ البسيطةَ بشكلٍ مبالغ. وقف شياو طويلاً عند زاوية الجدار، وودَّ لو تخبره العمةُ أخباراً أكثرَ عن شينغ. كان طيفُها يتلاشى شيئاً فشيئاً. عاد شياو إلى المنزل مفعماً بالغضب، وجلس إلى جانب إصِّيصَيْ نانديين[8] في الفناء متأملاً السحبَ المتدفقةَ العابرةَ في السماء، في حالةٍ من الحيرةِ والإثارةِ الشديدين. وظلَّت تلك الحالةُ تلازمه إلى أن لمحَ شينغ تحمل سلة البامبو وتجتاز أحراج الصفصاف بمحاذاة النهر إلى خلف القرية.

كان هناك سهلٌ شاسعٌ خلف قرية شياو خي حُجبَت نهايتُه بمصداتِ رياحٍ سوداء، وكانت أحراج الشاي التي تتجه إليها شينغ في تلة بعيدة جداً عن القرية، إلى جانبها أخدودٌ عميقٌ نمت فيه أعشابٌ خضراء. رأى شياو طيفَها من بعيدٍ يختفي في الأحراج. كانت الأرجاءُ شاسعةً وساكنة، وجعلت شمسُ الظهيرةِ أطرافَ الحشائش وأوراقَ سنابلِ القمح تلتفُّ وتنحني قليلاً، وكان هناك صيَّادٌ وكلبٌ أصفر يطاردان طيورَ الذيال ويسيِران بتثاقلٍ بمحاذاةِ قناةِ نهر ليان شوي المتعرجة، ورآه شياو يتوقف إلى

(8) كما يطلق عليه أيضاً البامبو المقدس.

جانبِ رجلٍ مُسن يجمع برازَ الماشية وكأنَّه يطلب منه إشعالَ سيجارته، ورفعَ الكلبُ قائمَه الأمامي ولعقَ بنطلونَ الرجل. تبادلا بضعَ كلماتٍ وذهب كلٌّ في حاله. ودفع النسيمُ الرقيقُ رقةً لا تُحسُّ برائحةِ أوراقِ الشاي الكثيفة.

استغرق شياو من جديدٍ في الحيرةِ التي سبَّبتها العمةُ ما سان إثر زيارتها المفاجئة في الصباح، وشعرَ أنَّ كلامَها عرَّى اللغزَ المخبأَ في نفسِه، وفي الوقت ذاته شكَّلَ لغزاً آخرَ أشدَّ عمقاً. لم يكن بمقدروه تخيل كيف ظهرت العمةُ ما سان بأعجوبةٍ في مركزِ القيادةِ غيرِ المعروف في جبل تشي، وكيف لها أن تعرف مكنوناتِ قلبِه، وأيضاً، هل ذهبت شينغ من قبل إلى ذلك الكوخِ المنعزلِ إلى جانب نهر ليان شوي؟ أربكه ظهورُ مشهدِ الصيفِ ذاك في يو غوان في أعماقِ تفكيره من جديد.

بدت التلةُ الصفراءُ المائلةُ للاسمرار مثل جرفٍ رمليٍّ أجرد ينعكسُ على صفحةِ ماءٍ نقية. لم تنتبه شينغ إلى شياو حين اقتربَ من التلة، وأفزعها طائرُ سنونو يحلّق بمحاذاة مياه القناة.

دفعها شياو برفقٍ إلى الأرض.

عبر فجوات ظلال قمم أشجار الشاي القاتمة شمَّ شياو رائحةَ الأرض، وتلاشى قلقه واضطرابه فجأة. استلقى على الأرض التي سفعتها وأذوتها حرارةُ الشمس، وسمع صوتَها الرقيقَ يخفقُ بعيداً وقريباً. هبَّ نسيمٌ دافئ، وتذكَّر بصمتٍ أغنيةً شعبيةً قديمة. لم يستمر ذلك الشعورُ بالطمأنينةِ والسكينةِ طويلاً، إذ سرعان ما اجتاحه إحساسٌ عميقٌ بالوحدة وكانت شينغ تبكي في حضنه. أحسَّ شياو أنَّ صوتَ بكائها ويديها اللتين تعصران خصره كأنَّما تستنزفانه، وسرت فيه برودة. أغلقت شينغ عينيها وكأنَّها نائمة، وكلما احتضنها أكثر بدا أنَّها تبتعدُ عنه أكثر، وأحسَّ أنَّه غارقٌ في مستنقعٍ

هائل، وأنَّ مقاومتَه هي ما سيقضي على حياته. غمر الدفء جسده، وتبدَّت طبيعتُه الفطريةُ وتجربتُه الميالةُ للعزلةِ في حضنِ المرأة الشابةِ، وأحسَّ بقلقٍ وإنهاكٍ شديدين.

ظهر قرنا ثورٍ عند زاويةِ القناة، ثم ظهر ثورٌ آخرُ يمتطيه صبيٌّ يرعى الماشية، يُبعدُ بقدميه العاريتين ذباباتِ النعرة.

لم ينتبه إليهما الصبي.

اليوم الرابع

هذا اليومِ، دخل شياو كالمُسَرنَم إلى غرفةِ شينغ الحمراء.

لم يرجع سان شون بعد. ووقتَ المغيب، هبَّت فجأةً رياحٌ قويةٌ على نهرِ ليان شوي.

اليوم الخامس

هطل المطرُ في وقتٍ متأخرٍ من الليل، وسمع شياو في حلمه دويَّ الرعد الذي ينذر بفيضانات نهر ليان شوي في فصل الربيع، وحين استيقظ من النوم سمع زقزقةَ العصافير في كل الأرجاء. كانت الأشواك وبتلات الأزهار المشبعة بماء المطر قد تساقطت بغزارةٍ على الأرض الرملية المغسولة، وقد جعلته الشمس الحارقة ورائحة الزهور الأخاذة راغباً في الذهاب إلى الصيد. أخرج من تحت السرير صنارةَ والده التي لم تُستخدم منذ وقتٍ طويل. كانت الصنارةُ المصنوعةُ من الخيزران قد تعفَّنت، والفواصلُ الحديديةُ مغطَّاة بصدأٍ أصفر رطب. وأتى شياو بريش دجاجٍ من الفناء وقصَّه على شكلِ فلِّيناتِ الصيد، وحين كان يجهز خيوطَ الصنارة جاء الضابطُ

الحارسُ بزجاجةٍ صغيرةٍ مليئةٍ بديدان الأرض جمعها من جذورِ شجرةٍ خارج المنزل ليستخدمها طُعماً للأسماك. ثم اتجها على الفور إلى ضفةِ نهر ليان شوي.

تقع قريةُ شياو خي عند مصب نهر ليان شوي، وكان تدفقُ الماءِ غيرَ مستقرٍ عند المنعطف حيث يلتقي النهر بنهر لان جيانغ، وثمة أوراقُ خضراواتٍ وعسيلُ صفصافٍ تنسابُ بسكونٍ مع تيار النهر لا تلبث أن تبتلعها دواماتٌ في بعض المواضع التي تكون فيها المياهُ ضحلةً ومليئةً بالصخورِ الناتئة. ورأته النساءُ اللواتي يغسلن الملابسَ عند رصيف ميناء ليان شوي الحجري يرمي بصنارته في موضعٍ عند الضفةِ الأخرى حيث كان التيارُ سريعاً جداً، فلم يتمالكن أنفسهن من الضحك وقلن: فَقَدَ شياو مهارتَه في الصيد منذ أن رحلَ قبلَ عدةِ سنوات، لا يمكنه أن يصطاد إلَّا الأعشابَ المائيةَ هناك.

لم يسمع شياو حديثهن، بل سمع الضابطَ الحارسَ قليلَ الكلام ينصحه قائلاً: "التيارُ سريعٌ جداً، لنتجه إلى المصب ونبحثَ عن منطقةٍ هادئة".

ردَّ شياو: "يمكنك صيدُ أسماكِ أبو سيف وأمشاطِ الرصاص[9] حيث يكون تيارُ المياهِ سريعاً".

لم يتفوه الضابطُ بكلمة. أشعل شياو سيجارة، وكان يعرف أنَّ صيدَ السمك في هذه المياه يحتاجُ إلى صبرٍ شديد، ويذكرُ أنَّ والدَه كان يصطادُ السمكَ دائماً في هذا المكان، ويظلُّ هناك منذ شروق الشمس إلى غروبها، وسلته فارغة طوال اليوم. جلس شياو في بقعةٍ تظلِّلُها أشجارُ البندق متأملاً

(9) أمشاط الرصاص: نوع من الأسماك المفترسة ذا جسم طويل ورفيع، وفم يشبه منقار الببغاء. (الكاتب) ويشير الكاتب هنا إلى سمكة العقام. (المترجمة)

الغيومَ الساكنةَ وأسرابَ الإوَزِّ المحلِّقِ في سماءِ القرية، ثم انتقل ببصره شيئاً فشيئاً إلى جدارٍ أحمر في غربِ القريةِ مبني على شكلِ زاويةٍ عمودية، كان منزلَ شينغ. وكان يعلمُ أنَّ بإمكانِه رؤيةُ هذا الجدارِ بجلوسِه في هذه البقعةِ فقط، ورؤيةُ الفناءِ بوضوح.

أشرقت الشمس، وساد صمتٌ مطبقٌ الفناءَ الواسع. كان بابُ الردهةِ موصداً، وبضعُ دجاجاتٍ تنقرُ الحبوبَ أسفله. حين غادر شياو منزلها الليلةَ الماضية، نظرت إليه شينغ بولَهٍ وهي تغلقُ الباب. هبَّت الرياحُ الجنوبية وداعبت صفحةَ المياه، وعلا حفيفُ أشجارِ البامبو، ولاحت هالةُ القمرِ الباهتةُ من بين النجومِ البعيدةِ الوحيدة. لم تزرِّرْ شينغ قميصَها، وتركت شعرَها مُسدلاً على كتفيها. تأملها شياو، مرتجفاً من برودةِ ليلِ الربيع. قالت له شينغ وهي تغلق البوابةَ المطليةَ بطلاءٍ أسود، إنها ستُعلِّق سلةَ بامبو غداً على حبلِ الغسيلِ في الفناء إن لم يرجع سان شون هذه الليلة.

انعكست شمسُ الربيعِ الدافئةُ على صفحةِ الماء، وكان شياو يراقبُ الفناءَ بقلقٍ بعد هطولِ المطر، ولم يلمح سلةَ البامبو المعلَّقة، بل اكتشف أنَّ العمةَ ما سان تلوِّحُ له من بين أشجارِ الصفصافِ في القريةِ عند الضفةِ المقابلة.

ـ الطُّعمُ الذي جلبتُه صغيرٌ جداً وأسود، والأسماكُ تسبح بسرعةٍ كبيرةٍ هنا ومن الصعب أن تلتقطَ الديدانَ السوداء، هيا بنا سنعود.

نظَر إليه الضابطُ بارتباك، وكان قد ملَّ الجلوس، وشعرَ بالنعاسِ من الطقسِ الخامد. وبدا حائراً وهو يساعدُ شياو على جمعِ خيوطِ الصنارة، بسبب تقلُّبِ رئيسِه من جهة، ومن جهةٍ أخرى لأنَّه لا يعرف أيَّ شيءٍ عمَّا

يفكِّرُ فيه، إذ كان جاهلاً بكلِّ ما اختبره شياو خلالَ الأيامِ القليلةِ التي قضياها في قريةِ شياو خي.

إنَّه صبيٌّ. فكَّرَ شياو بهدوءٍ أثناءَ عودتِه.

سحبته العمةُ ما سان شياو إلى بقعةٍ مهجورة. كانت تدخّنُ غليونَ بامبو، وظلَّت صامتةً فترةً طويلة. لاحظ شياو أنَّ نظراتها الخائفةَ تتحاشاه، وكانت تقف على رؤوس أصابعِ قدميها الصغيرتين اللتين ترتجفان قليلاً. أخفضت العمةُ صوتها المبحوح وقالت وقد بدت مضطربة: لقد كُشِفَ أمرُكَ أنتَ وشينغ، أفزع بكاؤها الجيرانَ الليلةَ الماضية.

في الليلةِ السابقة، عاد سان شون في وقتٍ متأخر، أي بعد أن رحلَ شياو بفترةٍ قصيرة، وكانت الأمطار الموسمية التي طال هطولها قد بدأت تنثرُ رذاذاً. وقد شعرَ هذا الطبيبُ البيطريُّ الحاذقُ العائدُ في ظلمةِ الليلِ بغرابةِ الجو منذ أن وطأت قدماه بابَ الفناء، ولم تمنع رائحةُ السمكِ الكثيفةُ التي تفوحُ منه وتعبُ وإنهاكُ أيامِ الصيدِ المتتاليةِ من تكهناتِه الدقيقة. علَّقَ شباكَ الصيدِ الثقيلةِ على قفصِ الدجاج من دون أن يكترث بطست الماء الساخن الذي وضعته شينغ لينقعَ فيه قدميه. أثارت مشيتُها المترنحةُ وتورُّدُ وجهُها الذي لم يَزُلْ بعد دفقاً من الشكوكِ التي تعتملُ في نفسه، فأخذها إلى غرفةِ النومِ وأسدلَ الستائر. كانت ساقاها ترتجفان قليلاً، ولمست لحيتَه الخشنةَ بحنانٍ متذرِّعَةً بأنَّها ستذهبُ لإعدادِ الطعام، وحين همَّت بالخروج من الغرفة أمسكها سان شون، ودفعها دفعةً خفيفة، فتراجعت عدةَ خطواتٍ وجلست على حافة السرير. خلع سان شون عنها ثيابَها بسرعةٍ وخفة، ورفعها وألقاها على السرير، وأسدلَ الناموسية وأطفأ القنديلَ على الطاولة. سمعت شينغ صوتَ فكِّ حزامِه الجلدي، هذا الصوتَ الذي لم يجعلها

تشعرُ بالإثارةِ كما في السابق، بل جعلها تشعرُ بقربِ الكارثة، فلم تتمالك نفسَها من البكاء. وما أن لمسَها سان شون بجسدِه الرطب، حتى تصلَّبَ جسدُها وكأنَّ صدمةً كهربائيةً سرت فيه.

أخرج شياو كلَّ العملاتِ النقديةِ من جيبه ووضعها في يد العمة ما سان، لا ليدفع لتلك العجوز أجرَ ركضِها هنا وهناك لتقصي الأخبار، بل لتتحدث برويَّة. كانت أصابعها ترتجف كحيوانٍ صغير، ولم تتمكن من القبضِ على النقود، وسقطت عملتان من بين أصابعها على الأرض.

علَّقها سان شون على عارضة خشبية وربطها بحبال القُنَّب، وبعد أن كسر ستةَ أغصانِ صفصافٍ لفظت شينغ اسم شياو. ذُعِرَ الجيرانُ من صراخها في منتصف الليل، فتزاحموا في فناء البيت ذي الجدار الأحمر. كان باب المنزل موصداً، وعندما رأوا عبر فتحة الباب جسدَ شينغ العاري معلَّقاً، بدأوا في طرقِ البابِ المصنوعِ من خشبِ الجنكةِ الحديثِ بقوة، فكسروا الحلقتين الحديديّتين الضخمتين، وأحدثوا شقاً في الباب، وأراد البعضُ أن يمد يده ليفتحَ المزلاج، لكنهم توقفوا فجأة. حبسَ الناسُ الذين كانوا ينظرون عبر الشقوق أنفاسَهم، إذ لم يعلموا كلَّ ما يحدث في الداخل: شحذَ سان شون ساطور ذبح خنازير على نار القنديل، وقوَّرَ الجزءَ الأسفلَ من بطنها بسرعة، كانت حركتُه سريعةً وماهرةً مثل اقتلاعِ لبِّ البابايا. كانت شينغ أوهن من أن تصرخ، وارتعشَ جسدُها بشدة، ثم فقدت وعيها.

أَنهت العمةُ ما سان تدخينَ غليونِ البامبو منذ فترة، وبدت مذهولةً من سردها لما حدث، وفي الوقت ذاته كأنَّها ستظلُّ متفاجئةً دائماً وأبداً بالفعلِ الأخرقِ لهذا الشابِ الذي لطالما كان مُستقيماً. حمل عدةُ نساءٍ عطوفاتٍ

شينغ الفاقدةَ للوعي بقاربٍ صغيرٍ إلى منزل أهلها في يو غوان. ولم يكن ما حدث أمراً جديداً على أهالي القرية، فقد كان شيئاً طبيعياً أن تعود النساءُ الخائناتُ إلى بيوت أُسرِهنّ. لم تخبره العمةُ ما سان بأخبارٍ أكثر، وأهمها أنَّ سان شون الذي فُقِدَ أثرُه قد أشاعَ في كلِّ مكانٍ أنَّه أنه يريدُ قتله.

اليوم السادس

في ظهيرة يوم أمس، حمل شياو مسدسه وذهب إلى منزل شينغ ليلقي نظرة رغم علمه أنَّ سان شون قد فُقِدَ أثرُه في القرية. وحين تهيأ لمغادرة تلك الغرفة الحمراء التي تفوح برائحةِ فاكهةٍ غريبة، لمَحَ خيالَ شخصٍ عبر بسرعةٍ خاطفةٍ في غاباتِ البامبو، فقبض على مسدسه لا إرادياً. في مسدسِه ستُ طلقات، وكان يتَّقدُ غضباً الآن، ويفكِّرُ في الشخص الذي سيفرِغُ فيه هذه الطلقات الست. تمايلت أوراق غابات البامبو الكثيفة وكأنَّها ترتجف، وخرج الضابطُ الحارسُ من بينها، فتنفس شياو الصعداء.

نبهه الضابطُ بحذرٍ بالغٍ بعد عودتهما إلى المنزل أنَّه ربما قد حان الوقتُ للعودةِ إلى جبلِ تشي، لأنَّ الحرب على وشك البدء. هوى شياو بالمسدس بغضبٍ شديدٍ على الطاولة، فذُعرَت والدتُه من الصوت، ودفعت البابَ ودخلت. كانت تعلم بكلِّ ما جرى في القرية، ورغبت في الحديث مع ابنها عن الأمر عندما تسنح الفرصة. أرعبتها نظرات شياو الحانقة إلى الضابط، فأخذت المسدس من على الطاولة ودسَّته في أقربِ درجٍ لها.

نهض شياو وخرج من الغرفة من دون أن يتفوه بكلمة، وتبعته والدته بحذر. كانت ترى أنها يجب أن تتحدث مع ابنها، لأنها توقن أنه إذا هدد سان شون بقتله، فإنه سينفذ تهديده. كانت تعلم تماماً طبيعة هذه العائلة؛

فوالده الذي كان فيما مضى صياداً ماهراً، أثار من قبل شجاراً بالأيدي بين ثلاثين رجلاً أو أربعين بسببِ خلافٍ تافه. لم ينتبه شياو إلى أمه وهي تتبعه، فدخل مكتب والده وأغلق الباب.

لم يدخل أحدٌ إلى هذه الغرفة المعتمة المتربة منذ جنازة والده. أشعل فتيلَ قنديلٍ على الطاولة ليكتشفَ أنَّه مغطى بالغبار. جلس شياو أمام المكتب وحدق إلى بورتريه والده المعلَّقِ على الحائط المؤطر بإطارٍ أسود مصنوعٍ من قماشةٍ مقصوصةٍ بعناية. وخيَّلَ له أنَّه يرى والدته تخيطُ القماشةَ تحت ضوءِ القنديل. لم يكن أهالي تلك القرية يعرفون شيئاً عن كاميرا التصوير التي تم اختراعها منذ مدةٍ طويلة، وقد رسم بورتريه والده طبيبٌ متخصصٌ في الطب الصيني يبيع الضمادات، وكانت عينا والده التي رسمها رسامُ الأنهار والبحيرات هذا باهتتين قليلاً، كما أنَّ المعطف لم يكن مناسباً لمقاسه. رأى شياو عبر هذا البورتريه غير المتناسق كَمَّ البراعةِ التي رسم بها عيني والده. كانت تلك النظرة العميقة الهادئة مألوفةً له. وفي عشية رحيله كان والده يجلس على كرسي خيزران في الباحة يقرأُ كتابَ شعرٍ كلاسيكياً لشاعرٍ اسمه ميّ، وظلَّ والده في أيام حياته الأخيرة يقرأ هذا الكتاب كلَّ يوم. وكان يعلم أنَّ أخاه الأكبرَ قد حصل على موافقة والده الصامتة عندما كان ذاهباً إلى كلية هوانغ بو العسكرية، وتاق شياو أن يستشف من والده كما اعتاد رغبته في الانضمام إلى الجيش وأن يسدي إليه النصيحة والتوجيه. وظل يحوم حوله لفترةٍ طويلةٍ ذلك اليوم، لكن والده لم ينتبه له. رأى عبر باب الَفناء في تلك اللحظة نهرَ ليان شوي البعيد وأشعةَ الشمس تلمعُ على صفحته، ورمالَ ضفتِه الصفراء، والمراكبَ الراسية، وزميلاً سينضمُ إلى الجيشِ يلوِّحُ له. كان وقتَ الأصيل. لم تكن لديه فكرةٌ واضحةٌ إن كان

والده قد أبدى موافقةً حين علم أنَّه سيعملُ ضابطَ خدماتٍ تحت قيادةِ تسون تشون فانغ، وراوده فيما بعد شكٌ متزايد مع اشتدادِ حدةِ المعارك أنَّه ربما خان رغبةَ والدِه دونِ قصد.

استحال لون مقعد والده البنيّ الأحمر إلى أصفر باهت، وكانت أرفف الكتب العالية المنقوشة المصنوعة من خشب الماهوجني المنحوت مصقولةً كمرآة. التقط مسوّدةً كتبها والده قبل وفاته، موضوعةً أسفل محبرةٍ حجرية نُقِشَ عليها "حبرُ ليان شوي". ولمَّا راح يتصفحها وقعت عينه على رسالةٍ من والده إلى أخيه الأكبر منسوخةٍ في هذه المسوّدةِ المصنوعةِ من أوراقِ البامبو، التي كان ينسخ فيها والده الكتاباتِ المنقوشةَ من عصرِ أسرةِ هان وأسرةِ ويّ. ولأنَّ فرشاةَ الكتابةِ لم تمتص كثيراً من الحبر، فقد بدت الكلماتُ أشدَّ قوةً وخشونة، واكتشف شياو وجودَ اسمِه في سطورِ الرسالةِ الأخيرة.

وما كتبه والد شياو: لا أعلِّقُ آمالاً كبيرةً على رؤيتِه مرَّةً أخرى، فسيهلكُ جيشُه عاجلاً أم آجلاً، ولستُ قلقاً من سماعِ خبرِ موتِه كما كنت في السابق.

أحسَّ شياو وكأنَّ إبَراً تَخِزُ عمودَه الفقري، فرغم أنَّ الرسالةَ لم تحمل أيَّ توبيخٍ له، لكنّه شعرَ بالمهانة. ظل جالساً إلى مكتب والدِه، وكان وقت ما بعد الظهيرة يتسرَّبُ كحباتِ الرمال. ودفعته طبيعته المتعجرفة العنيدة إلى الهدوء، وكأنَّه أفاقَ لأوَّلِ مرَّةٍ من تلك الكوابيس المنهكة للروح التي دهمته في قريةَ شياو خي، ولم يعد يتوقع أيَّ شيءٍ بعد الآن، وسيطرت عليه رغبةٌ قوية في الانتصار جعلته يريد العودة على الفور إلى صفوف الجيش. وتذكَّرَ تقريراً عن الجبهة الأمامية صدر منذ وقتٍ قصير، مفاده أنَّ جيشَ تسون تشون فانغ على حافة الانهيار التام تحت هجوم جيش الحملة الشمالية، وقد ألقى استسلامُ السّريَة 72 والسّريَة 31 بظلالٍ قاتمةٍ لا يمكن محوها على

الجنودِ الذين تزعزعت معنوياتهم، وأحسَّ شياو بنذيرِ شؤمٍ يباغته، لكنه سرعان ما تلاشى، ودفعه عناده وانغماسه في التخيلات إلى وضع آماله في المعركة التي ستندلع قريباً. ورأى أنَّه لم يعد أمامه إلَّا المجازفة طالما لا يملك أيَّ مخرجٍ آخر. ولم يكن متأكداً هل كانت تلك الآمالُ السخيفة نابعةً من كرهه وسخريته من والده، أم أنَّه يلتمس الصفح من روحه في السماء على اختياره الخاطئ. وعقد العزم على العودة إلى جبل تشي في الحال.

لكن في اللحظة التي نهض فيها ليغادر مكتب والده، تسللت إلى ذهنه فكرةٌ بالغةُ الضآلةِ جعلته يغير رأيه مرَّةً أخرى.

فكَّر في شينغ.

ظهرت أمام عينيه نظراتُ شينغ الحنون الحائرة، مثل رائحة فاكهة منعشة تنساب حوله. عاد بذاكرته إلى فصل الصيف الحار الذي أمضاه في يو غوان، وإلى الصيدلية المبنية من الخيزران عند ضفة النهر، وخيالها الذي كان يلوح مراراً في خضم الحروب، والكارثة التي سبَّبها لها خلال الأيام التي أمضاها في شياو خي. ونما في نفسه شعورٌ عميقٌ بالخطيئةِ الأصلية.

أخبر والدته وقت الأصيل أنَّه سيذهب إلى يو غوان هذه الليلة، ولم تتفاجأ والدته، إذ كانت تعلم أنَّ ابنةَ قريبها قد سلَبت روحه منذ أن ذهب لدراسة الطب هناك. جلست إلى الطاولة ونظرت إليه بوجهٍ يخلو من أيِّ تعبيرٍ وجسدها يرتجف. كان الضابطُ قد أسرف في الشراب، وبدا كأنَّه يعلمَ بشكلٍ مبهمٍ أنَّ شياو سيذهب إلى يو غوان، وحاول جاهداً أن يفرد ساقيه ويجلس، لكنه ما أن رفع رأسَه قليلاً حتى سقط بشدةٍ على السرير وغطَّ في نومٍ عميق.

تبعد بلدة يو غوان عن شياو خي عشرينَ لِيْ عن طريق النهر، وتستغرق المسافة للذهاب والعودة ليلة واحدة. كان الظلام قد هبط حين خرج شياو من المنزل. عبَر بيدر درْس الحبوب الخالي هِلاليّ الشكل، ورأى أضواءَ مراكب الصيد المبعثرة مضاءةً في الموعد عند ضفة ليان شوي، أخذ نفساً عميقاً وسارع الخطى. تناهى إلى سمعه صوت مدقّة درْس الأرز تدقّ الهاون في الليل الذي تشتد عتمته. وحين وصل إلى ضفة النهر وتهيأ لحل القارب المموه بين شجيرات شبّ الليل المشبعة بالندى الليلي، خُيِّل له أنَّ هناك أطيافًا سوداءَ تعبرُ بسرعةٍ خلفه، فالتفت وإذا به يرى سان شون وعدّةَ رجالٍ لا يعرفهم يتجهون صوبه حاملين سواطير.

اقتربت الظلالُ السوداءُ منه ببطءٍ فيما سواطير بطول تسعة إنش تتمايل في أيديها. تراجع شياو إلى ضفة النهر، وكان بإمكانه سماع تدفق مياهه الهادئة بوضوح. بحث عبثاً عن مسدسه في الجراب الخاوي، الذي نسيَ حمله في خضم اضطرابه. كان المسدس المطعم بست طلقات موضوعاً في تلك اللحظة في درج طاولة غرفة النوم. لم يتقدم سان شون، بل وقف متكئاً على شجرة شوكية يمضغ أوراق شجر متأملاً ببرودٍ رجاله الذين سيحيطون بشياو ويطعنونه حتى الموت. وفجأةً بصق ورق الشجر الممضوغ واتجه صوبه بسرعة وسأله وكأنَّه تذكَّرَ أمراً ما:

ـ أين ضابطك الحارس؟

ثم بدا وكأنَّ الظلالَ السوداءَ التي تحيطه قد تذكَّرتْ الأمر، فتركوه وذهبوا إلى الأحراج ليبحثوا عنه بحذر. وكانوا على يقين بأنَّ الضابطَ في مكانٍ ما قريب. رفع سان شون ذقن شياو بنصل الساطور وسأله:

ـ أين ضابطك الحارس؟

ردَّ شياو بهدوء: إنه سكران.

نخر سان شون نخرةً بصوتٍ خفيض، ولم ينطق بكلمةٍ أخرى. وبعد وقتٍ قليلٍ ظهر الرجال الذين اندسوا في الأحراج وأجسادهم تغطيها خيوط العنكبوت وقطرات الندى. في تلك اللحظة لاح القمر من بين الغيوم، وأصبح كلٌّ منهم يرى وجهَ الآخرِ بوضوحٍ، وأدرك سان شون أنَّ رجاله لم يعثروا عليه.

تأمله سان شون بنظراتٍ يملؤها الشك، وأحسَّ بالحيرة لأنَّ شياو كان عائداً إلى السّريّة بدون الضابط، وحدَّق إلى وجهه بتمعن، ثم لاح تعبيرٌ لا يُرى عند زاوية شفتيه وقال: هل أنت ذاهب إلى يو غوان من أجل تلك العاهرة؟

لم يرد شياو. كان يتأملُ بهدوءٍ كلَّ ما يحدث أمامه، مدركاً في الوقت ذاته بأنَّ مستقبلاً بائساً مرعباً يقتربُ شيئاً فشيئاً.

أحاطهم الصمت المطبق من جديد، وبعد مرورِ فترةٍ طويلة سمع شياو صوتَ تنهيدةٍ طويلةٍ خافتة، وكان سان شون قد ألقى بالساطور في النهر، والتفت مغادراً، لكنَّه ما لبث أن التفت قبل دخوله الأحراج وأشار إلى رجاله قائلاً: اتركوه.

تخلَّى سان شون عن نيةِ قتله، ربما أصابته عدوى افتتانِ شياو بتلك المرأةِ الفاسقة، أو ربما كان مدفوعاً بمزاجٍ غريبٍ ومتقلبٍ في داخله. وحين دهمت شياو تلك الفكرةُ الغامضة، كان الرجالُ قد اختفوا في عتمةِ الليل.

اليوم السابع (الخاتمة)

عاد شياو إلى قريةِ شياو خي فجر اليوم التالي، وفي النور الأرجواني الضارب إلى الحمرة دفع شياو القارب إلى شجيرات شبِّ الليل، والندى الضبابي يحجبُ معالمَ القرية، والثيران تخور عند أشجار الصفصاف إلى جانب النهر. كان موسماً ماطراً منعشاً. يمتدُّ رجعُ صدى خطواتِه في الزقاق الضيق الطويل، ولم تنبح الكلاب المنكمشة الجاثمة إلى جانبِ سياجٍ خيزراني، وبدا وكأنَّها ألِفتُه. عاد شياو بذاكرته مراراً وتكراراً إلى اليوم الذي وصل فيه إلى هذه القرية في صباحٍ كهذا، كما أنَّ نجاتَه بأعجوبةٍ من موقفِ البارحة جعلت مزاجَه أفضلَ في نسيمِ الفجرِ العليل.

كانت والدته تكنس الباحة حين وصل شياو إلى بابها، حيَّاها واتجه مباشرةً إلى الداخل. كان الضابطُ الحارسُ جالساً إلى الطاولة في انتظاره، وتعجَّبَ شياو من أنَّ هذه المرَّة الأولى التي - يستيقظُ فيها مُبكِّراً - هذا الشابُ المُحبُّ للنوم. فتح الضابطُ الدرجَ بسرعةٍ والتقطَ المسدسَ وصوّبه نحوه.

ظنَّ شياو أنها مزحة، لكنه أحسَّ بخطورة الأمر ما أن لمحَ الابتسامةَ الفاترةَ على شفتيه، وحينها سمع أطولَ حديثٍ قاله هذا الضابطُ الصموت:

ـ بعد استسلام السّريّة 31 وانسحابها من المدينة، تلقيتُ أوامرَ بمراقبتِك، فقد كان جيش أخيك هو مَن استولى على يو غوان، وإذا أُرسلَت إليه أيّ معلوماتٍ فإنّ خطّة الدفاعِ عن منطقةِ حوض نهر ليان شوي ستنهار برمّتها. تلقيتُ أمراً سِريّاً من قائد السّريّة عشيةَ رحيلنا عن جبل تشي بقتلك إذا ذهبتَ إلى يو غوان.

بدا شياو وكأنَّه يشمُّ حقَّاً رائحةَ البارودِ والكبريت. أرغم نفسه على الهدوء، لكن التعب والإنهاك اللذين استبدا به من التجوال طوال الليل

وخطر الموت المفاجئ جعل ساقيه ترتجفان بشدة، وشعرَ بتوترِ أعصابِه كلِّها. تجمَّد الكلام الذي أراد قوله في ذهنه، وظل صامتاً وكأن قطناً دُسَّ في حلقه، وكان ذلك موازياً لاعترافه بالخيانة. وفي النهاية قال بنبرةٍ مزعزعة:

ـ يمكنك أن تحتجزني وتأخذني إلى السرية لاستجوابي.

ابتسم الضابطُ بمكرٍ وقال: إن إعدام قائدَ لواءٍ في سريتك سيزعزعُ معنوياتِ الجنود، إلى جانب ذلك أوشكت الحرب على الاندلاع، وليس هناك وقت.

أطاح شياو بالطاولة بخفة قبل أن يكمل الضابطُ كلامه وفرَّ من الحجرة. كانت والدته تغلق باب الباحة لتمسك دجاجة. وصل شياو كذئبٍ منهكٍ إلى خارج باب الباحة لكن الأوان كان قد فات على فتح المزلاج. فالتفت بيأس.

اقترب منه الضابطُ حاملاً المسدس.

أشرقت الشمس فجأة، وبعد انحسار نور الفجر الأحمر القاتم، تساقط مطرٌ خفيف، وفي مواجهة فوهة المسدس التي لا يُسبَرُ غورها، كانت الذكريات الماضية الخاطفة تتدفق ثم تختفي مثل بتلات أزهار تتناثر فوق صفحة المياه، ومرَّةً أخرى، استغرق في تخيلاتٍ مبهمةٍ ورعبٍ ساحقٍ تجاه تهديدِ الموتِ المفاجئ. وتذكَّرَ نصيحةَ الراهبِ المُلتبسة، والآن، ليس الكأسُ المترعةُ بالنبيذِ ما سوف يدفعُ به إلى بواباتِ الجحيم، بل فوَّهةُ مسدسٍ سوداء، وشعرَ بشيءٍ من الندمِ المبهم. كانت والدته تقف إلى جانب أقفاص الدَجاج القريب منه وتتأمله بذهولٍ بعد قبضها على الدجاجة.

تأمَّلَ جسدَ والدتِه الضئيل وقامتَها القصيرةَ وبنطالَها المجعَّدَ الملطَّخَ بالوحلِ وريشِ الدجاج، ودهمته رغبةٌ شديدةٌ في احتضانِها. وفي اللحظةِ

التي سمع فيها صوتَ الرصاص، أحسَّ بسائلٍ رطبٍ يتدفقُ من بطنه وفخذيه.

كان الضابطُ الحارسُ يقف على بعد ثلاثِ خطواتٍ منه، وقد أفرغَ بجديةٍ طلقاتِ المسدسِ الست.

تشينغ هوانغ
الأصفرُ المائلُ إلى الخضرة

أسطول "أسر الصيادين التسع[(10)]"، هو مجموعة مراكب لبائعاتِ هوى يطفو على نهرِ سوتزي، اختفى منذ أربعين عاماً، لكنّ القصصَ والحكاياتِ عنه لا تزال متداولة. وثمة قصة مذكورة في كتاب "تأريخ قرية ماي" نسخة العام 1953: أنَّ الجيل الأخير من "أسر الصيادين التسع" والمُلقَّب بـ تجانغ قد وطأ شاطئ قرية ماي في فجر أحد الأيام بعد ملاحقات الجنود ومضايقات العصابات المحلية. والأمرُ المُحير، أنَّ المدرسين الخصوصيّين الثلاثةَ الذين ألَّفوا هذا الكتاب، قد وصفوا بدقة مشهدَ الفجر الذي "عبرت في سمائه الألوانِ كلّها"، لكنّهم لم يذكروا تفاصيلَ واضحةً عمَّا جرى بعد أن وطأ هؤلاء الصيادون اليابسة. وما ورد في الطبعةِ الجديدةِ لكتاب "تاريخُ البغايا في الصين" تأليف تان وي نيان، من وصفٍ مُلتبسٍ لأسرِ الصيادين التسع كان سرقةً أدبيةً سيئةً من كتاب "تأريخُ قريةِ ماي". وفي الأيام الجيدة التي

(10) شعب تانكا أو شعب القوارب، مجموعة إثنية صينية تقطن جنوب الصين. عاشوا في كل من مقاطعات غوانغدونغ، وقوانغشي، وفوجيان، وهاينان، وشانغهاي، وجيجيانغ وعلى طول نهر اليانغستي، وأطلق عليهم هناك "أسر الصيادين التسع".

يكون فيها ذهنُ البروفيسور تان وي نيان صافياً، يدفعني سلوكه وكتاباته الصارمة إلى أن أحذو حذوه بصمت، ولكن الآن؟ ما أن يكون محورُ حديثِه مرتبطاً بقريةِ ماي وعائلاتِ الصيادين التسع، فإنَّه يقعُ في الأخطاءِ باستمرار. ويبدو لي حين يتفوَّه بتلك الجُمل غير المنتظمة أنني أرى هيئته المضحكة في سنواته الأخيرة المُرَّة يرتدي بنطالاً واسعاً وقصيراً من الخيش ويقفز من فوقِ طستٍ مشتعلٍ بالنار. وكغيره من الباحثين، ذكر البروفيسور في الصفحة 426 من ذلك الكتاب، الكلمةَ التي أثارت كثيراً من الجدل: "تشينغ هوانغ - الأصفرُ المائلُ إلى الخضرة". وفقًا لحجته، يُقال إنَّه "من غير الحكمة على أيّ حال" تفسير كلمة "تشينغ هوانغ" على أنَّها اسمُ شابةٍ جميلة، ثم كان أمراً سخيفاً أن أطلقَ بعضُ الناسِ الكلمةَ على تغيُّرِ الفصول من الربيع إلى الصيف، لكن البروفيسور اعتمد على حسِّه التنبُّئي الفطري وعنادِه معتقداً أنَّ "تشينغ هوانغ" كتابٌ تاريخيٌّ عن حياةِ أسرِ الصيادين التسع وبائعاتِ الهوى، وادَّعى أنَّه ما لم يحدث أيُّ ظرفٍ غيرِ متوقع، فإنَّ الكتابَ لا يزالُ في متناولِ الناس.

وبناءً على هذا الحديثِ الرائع، عقدتُ العزمَ على الذهاب مرَّةً أخرى إلى قرية ماي. قبيل رحيلي صادفتُ تان وي نيان في حانةٍ خاصةٍ، وتحدثتُ معه عن خطتي. وكالعادة، بعد أن سمع كلامي لوَّحَ بيده بنفادِ صبرٍ وقال:

ـ لن تجني شيئاً بذهابكَ إلى هناك.

1

يقول الشاعر أوديسو إليتيس: يمرُّ الزمنُ مع الأشجارِ والحجر.

وبالنسبةِ لواقعةٍ حدثت منذ أربعين عاماً، لم يكن الناسُ لينسوها بهذه السهولة. ذاتَ ليلةٍ بعد وصولي إلى القرية بثلاثة أيام، صادفت رجلاً مُسناً يُثبِّتُ سياجاً خشبياً حول حظيرةِ غنمٍ عند أشجارِ بندقٍ منخفضةٍ بمحاذاةِ النهر، وكان مثل كثيرٍ من أهالي القرية، لا يريد أن يأتي على ذِكر ذاك الأمرِ "الشائن". كان ثمة ظلالٌ حزينةٌ تتداخل على وجهه، جعلت بشرته تبدو صلبةً كالحجر. رحت أتجولُ جيئةً وذهاباً لفترةٍ طويلةٍ عند سياج الحظيرة التي تفوح برائحةِ الغنم، ثم بدأ الرجل الحديث معي. بدا كأنه يسترجع الأحداثَ بشِقِّ الأنفس، وكأنَّه يريد أن يتوقفَ الزمن أو يظهر مرَّةً أخرى عند نقطةٍ أمامه. خرج الصوتُ من بين أسنانه ثقيلاً وغيرَ واضح، ما سبَّب لي صعوبةً في تسجيل ما يقوله، وكنت أطلبُ منه أن يتوقف أو يعيد الجملةَ مرَّةً أو مرَّتين.

رسا ذلك المركبُ المظلَّلُ بسقيفةٍ باليةٍ على الشاطئِ وقتَ الفجر، وصادف وصوله موسم الأمطار في منتصف الصيف. كان صباح ذاك اليوم بارداً قليلاً، وقد جاء الرجل المـُلّقب بـ تجانغ مع طفلةٍ نحيفة وسارا بصعوبة في طريق الوادي الموحل باتجاه القرية، بخطواتٍ مترنحةٍ من هبوب الرياح الجنوبية الشرقية، رآهما جميع أهل القرية. كان المركب الطافي خلفهما قد اشتعلت به النيران، وأصدرت سقيفةُ البامبو هسيساً أثناءَ احتراقِها. كان شخصاً غريباً عن المنطقةِ وذكيّاً، ربما قلق من أنَّ سكانَ القريةِ لن يستقبلوه فأشعلَ النارَ في المركب.

شاهد هذا الرجل متوسط العمر المنهك أهالي القرية يغلقون الأبواب في وجهه، ووقف بحزنٍ بالغٍ هو وابنتُه في المطر فترةً طويلة. وفي منتصف الظهيرة رأوا عبر شقوق الأبواب، مَراكبيّاً عند مدخل القرية يرافقهما بعيداً.

"وإلى الآن"، أكمل الرجلُ متذكِّراً: لا أعرف اسمه، ابنتُه تُدعى شياو تشينغ. لكنَّها أصبحت عجوزاً، وتعيش في قرية "خو"، ولا تُدعى بذلك الاسمِ الآن.

ـ وبعد ذلك؟

ـ لا أذكرُ ما حدث بعد ذلك. وصلا قبل عيد قوارب التنين بثلاثةِ أيام، أو ربما قبله بأربعةِ أيام، لأنَّ قاربَ المراكبي المُسن انقلبَ يوم العيد، ومات ثلاثة أشخاص، وظنَّ الجميع أنَّ هذين الغريبين هما من جلبا تلك الكارثة. كان الرجلُ قليلَ الكلام، لا يبتسم إلَّا نادراً، وكأنَّ ثمة ما يثقلُ قلبه، أو ربما لأنه لم يعتَد على بيئةِ القرية.

لم يصدر عن الرجل أيُّ ردِّ فعلٍ حيالَ كلمةِ "تشينغ هوانغ" التي كنتُ أذكرُها بين وقتٍ وآخر، وكان يعطي انطباعاً عجيباً أثناء سرده؛ إذ يخفي بعض الأشياء في الوقت ذاته الذي يكشف فيه عن أشياء أخرى. وفي النهاية، أضاف قائلاً قبل أن أغادر: "كنتُ آتي تقريباً كلَّ يومٍ إلى ضفةِ نهر سوتزي لجلبِ المياه، وأرى هذا الغريبَ في بعض الأوقات يجلسُ على مقعدٍ صغيرٍ أمام باب منزله ويتأملُ ابنتَه وهي تصطادُ الفراشاتِ على منحدرٍ مليء بالشيح، ولكن في معظم الأيام، عند غروب الشمس، أرى هذا الباب البالي موصداً منذ مدة طويلة. ربما كان أباً صالحاً. وبعد مرور سنتين بدت ابنته وكأنَّها كبرت فجأة".

الآن، كان نهرُ سوتزي يتدفقُ بسكونٍ تحت قدمي، تنتشرُ برودةٌ من أعلى صفحةِ مياهه، وثمة أكواخٌ متداعيةٌ باليةٌ تنتشرُ عند أطرافه، وبيوتٌ أسقفُها وعوارضُها متداعية. كنا في بداية الخريف، ولا أثر للفلاحين في الحقول، فقد كانوا متجمعين إلى جانب الجدران يتشمَّسون في انتظارِ نضج

أزهار القطن. لم يُظهِر أهالي القرية - بالإضافة إلى بضعة كلاب صفراء تتجول هنا وهناك - أيَّ اهتمامٍ بمجيئي، وفي الحقيقة، أنَّه في اليوم الأوّل لوصولي بذلوا جهداً كبيراً حتى عرفوا بطريقة ما سببَ مجيئي لقريتهم، ثم خصصوا لي مسكناً في مصنع لمعالجةِ الدقيق في شرق القرية. كانت آلاتُ المصنعِ معطوبةً منذ أسبوعٍ وأُرسلَت إلى سوقِ بلدةٍ تبعدُ عشراتِ الكيلومتراتِ لإصلاحِها.

شممتُ من جديدٍ رائحةَ غبارِ دقيقِ القمح الخانقة بعد عودتي إلى تلك الغرفة. وخطَر لي أنَّ هذه قريةٌ تفتقرُ إلى الفضولِ والحماس، وأنَّ أيَّ شخصٍ غريبٍ يطأُ أرضَها سيشعرُ بالوحدة، فلم يكن الأمر مقتصراً على هذا الشخص المسكين الملقب بـ تجانغ. كان الوقت لا يزال مبكراً، فاستلقيت على سريرٍ خشبي إلى جانب الجدار. وما أن دخلتُ إلى عالمَ الأحلام، تذَّكرتُ فجأةً ذكرى ماضية. ورغم أنَّها ليست ذكرى مميزة، ولكن، ثمة تفاصيلُ داخلها تبعثُ في نفسي الضيق.

2

قبل تسعِ سنوات، وقتَ مغيبٍ حار، قابلتُ رجلاً كبير السن يبيع سُكَّر الشعيرِ بينما كنت أسير في الطريق المؤدي إلى قريةِ ماي. كان جالساً على رابيةٍ عاليةٍ عند مجرى ماء على حافةِ الطريق، تظلِّلُه شجرةُ الليلك الهندي.

بدا من هيئته أنَّه حرفيٌّ متمرس. يضع أمامه سلَّتين من الخيزران لونهما أسود بفعل حرارة الشمس ومياه الأمطار، وفي يده ناي خيزراني، وبدت نظراته الحزينة وكأنَّه يترقب أمراً ما. وأمامه، تصبغُ أشعةُ الشمس الغاربة حقولَ القُنَّب بلونٍ برتقالي مائل إلى الحمرة. لاحظتُ أنَّه لم يحاول

التحدث إلى أحد، وسحرني مظهره. ودهمني شعورٌ أعجز عن وصفه، وكأنَّه كان جالساً هنا طيلة اليوم يدخن غليونه بهدوء. وحين توقفت إلى جانبه متأملاً الآثار التي خطَّتها الأيام والسنين على وجهه، أدركت كم تمكنت الشيخوخة منه.

قال إنَّ اسمه لي غوي، وإنه يعيش في خينغ تانغ. وفي ذاكرتي، كانت "خينغ تانغ" كلمةً كلاسيكية واسم مكان ذُكِر دائماً في الكتب المدرسية. وقال إنَّه على الأرجح فَقَدَ طريقَه هذا الصباح. "يبدو كلُّ شيءٍ هنا وكأنَّ شخصاً ما غيَّره". جلستُ إلى جانبه تحت ظلِّ الشجرة، وناولني وعاءَ التبغِ الجاف.

ـ يبدو أنَّ نايَكَ ليس به ثقوب.

ـ ولكنَّه يُصدر ألحاناً مع ذلك. لا أعزفُ عليه الآن.

لمس العجوز قصبةَ الناي برفق وحدَّق إلى الطريق المتعرج البعيد والقرية في نهايته، وكأنَّه يسمع صوته.

ـ هل أنتَ من هنا؟

ـ لا، أنا مجردُ عابرِ سبيل.

لم نجد فيما بعد موضوعاً مناسباً نتحدث فيه، فجلسنا صامتين. شعرتُ أنَّ كلَّ شيءٍ طبيعيّ ومُؤنس. وأخيراً اقترح أن نبحث معاً عن مكانٍ للمبيت في القرية، فوافقت.

حلَّ الظلامُ أثناء سيرنا بمحاذاةِ الطريق المليء بالحفر وآثار عجلات العَربات، والمؤدي إلى القرية، عبرنا سوراً طينياً وتوقفنا عند أول مكان رأينا فيه النورَ مُضاءً وطرقنا الباب. كان منزلَ طبيبٍ جرَّاح، تفرَّس فينا وسألنا عن بعض التفاصيل، ثم وافق على مضض في النهاية على مبيتنا في منزله.

أخذنا إلى غرفة في الجناح الغربي تتكدس فيها أكوام قشّ، وأضاء مصباح الكيروسين الموضوع في كوَّةٍ تمثالِ بوذا. ظهرت على وجهه علامأت القلق والحذر الذي يتميز بهما الريفيون. وقبل أن يغادر قال إنَّه سيذهب إلى قرية أخرى اليوم لاستشارةٍ طبية، فهناك امرأةٌ مصابةٌ بالإكزيما.

استلقينا متجاورين على كومةِ القشِّ وسمعنا الطبيب يوصد أبوابَ الغرفِ الأخرى ثم غادر. بعدها حدث أمرٌ غريب.

هطلَ مطرٌ غزيرٌ فجأةً عند منتصف الليل، واستيقظتُ مذعوراً على صوت دوي الرعد. كان الفناء خالياً والباب مفتوحاً على مصراعيه، يصفع الجدران بسبب الرياح. لم يكن شباك الغرفة مغلقاً بإحكامٍ كذلك، فتناثرت قطراتُ المطرِ على وجهي. وعندما هممتُ بإغلاق النافذة، وفي ومضةٍ باهرةٍ للبرق، أحسستُ بأنَّ هناك خطباً ما. تلمَّستُ طريقي حتى وصلت إلى الباب وأشعلتُ مصباح الكيروسين مرَّةً أخرى، واكتشفت أنَّ الرجل غادر الغرفة. كانت سلَّتا الخيزران معلَّقتين على الباب، فخمَّنتُ أنه خرج إلى الحمام، وعلى الأرجح لم يبتعد كثيراً. لكن المطر كان غزيراً، وقرقرة الجداول ترن في كل مكان. ورأيت في نور المصباح المتمايل أثر جسده على كومة القش حيث كان نائماً، وتملكني شيء من الخوف.

بدا الوقت وكأنَّه مرَّ طويلاً، وسمعت وأنا في حالة بين اليقظةِ والنعاسِ صوتَ بابِ الجناح يُفتَحُ بهدوء، ورأيت الرجل يحمل حذاءه البالي ويقف أمام الباب عاري القدمين، جسده مغطًى بوحلٍ أسود، وبنطلونه مرفوع إلى ركبتيه، كاشفاً عن ساقين بيضاوين لا تتلاءَمان مع سنه وشخصيته. اتكأ على حافة الباب وابتسم لي على نحوٍ مفاجئٍ ابتسامةً تحمل في طياتها تلميحاً بأنَّه لا ضرورة ليشرحَ لي كلَّ شيءٍ يفعله. عاد إلى مكان نومه

واستلقى، وعبْرَ النورِ الخافتِ رأيتُ إصبعَ قدمِه الكبيرِ مجروحاً ينزُّ دماً بفعل شظايا زجاجٍ أو مسمار.

سرعان ما توقف المطر، وتبدَّد نعاسي. وطوال تلك الليلة، وإلى الآن، لا أزال أفكِّرُ في هذه الواقعة. عاد الطبيب في صباح اليومِ التالي حاملاً مظلَّةً ورقية، وكانت نظراته حزينة، وقال إنَّ المرأة توفيت، أخبرتُه أنَّني أرغب في المكوث يومين في منزله فوافق. وفي ظهر ذلك اليوم حمل الرجل السلَّتين وودَّعني. شاهدت ظلَّه يجتاز عتبة الباب ويسير صوب الجسر الخشبي أعلى نهر سوتزي. سنواتٌ كثيرةً صقلته وجعلته ضئيلاً، مثلما تَحتُّ مياهُ النهرِ الصخور. وكان انطباعي عنه أنَّه رجلً صادقُ مسكين، وما حدث بعد ذلك قد أثبت حدسي. في شتاء العام 1967، كنت أغيِّرُ وجهتي من لوه جوه إلى آتشانغ مستقلاً باصَ الرحلاتِ الطويلة، وعثرتُ بالصدفة على خريطةِ الطريقِ إلى محطة "خينغ تانغ"، وبعد أن أنهيت غرضي من الرحلة عائداً من آتشانغ، قررت أن أذهب إلى خينغ تانغ. لا أعلم لِمَ تملكتني الرغبة في رؤية هذا الرجل، ربما لكي أعثرَ في شخصِه على شعورٍ فقدته، أو ربما لإزاحة بعض المخاوف الغامضة. لم يمر وقتٌ قصيرٌ منذ أن ترجلت عن الباص حتى وجدته عند وادٍ صغيرٍ خلفَ غاباتِ البامبو. أذكُرُ أنَّ الوقتَ كان منتصفَ ظهيرةٍ تلمع فيه أشعةُ الشمس، وكانت صبيةٌ جميلةٌ هناك تغسلُ أغطيةَ السرير في بركةٍ أمام الباب. صرتُ أذهب بعد ذلك إلى لوه جوه لأتعلَّمَ اللهجةَ العاميةَ للمنطقة، وأزوره بين حينٍ وآخر في خينغ تانَغ. وشيئاً فشيئاً عدَّني الناسُ هناك - لا سيما تلك الصبية - صديقاً مقرَّباً له رغم فارِق السن بيننا.

3

لم يُفضِ بحثي إلى شيء. في سكونٍ، يغمرُ نهرُ الزمنِ دائماً كلَّ شيء، لكنّ الذاكرةَ تظلُّ تدفعُ بالبقايا الغارقةِ في قاعِ النهرِ لتطفو على سطحه، مثل أعشابٍ خضراء تنبثق من الأرض الثلجية من جديد. كنت أقضي النهارات أثناء إقامتي في القرية متجولاً في الأرجاء كروحٍ هائمة، باحثاً عن آثارٍ للماضي، وأصرف ليلةً تلو أخرى في تخيلاتٍ عن هذا الماضي البعيد. وذاتَ صباحٍ ذهبت إلى الطبيب الذي نمتُ في بيته منذ تسعِ سنوات، ودفعتني تلك الغرفة المكدسة بالقش إلى استرجاع ذكرى تلك الليلة الماطرة. كانت بالنسبة لي مجردَ حادثةٍ تافهة، ولم تبدُ وكأنَّ لها علاقة بأسر الصيادين التسع. تعرَّفَ عليَّ الطبيبُ بعد لحظاتٍ من التذكر.

لم يكن يعلم كثيراً عن هذا "الرجل القصير الذي يشبه الظل". وقال: كنت طفلاً حينذاك. أُصيبَ ذلك الغريبُ بالجربِ في إحدى المرات، فذهبتُ مع والدي إلى الكوخ القريب من النهر. كان يبدو في تمام صحته، ولم يتوقع أحد أن يموت قبل أوانه. أذكر أنَّه تزوج للمرةِ الثانية من امرأةٍ تُدعى أر تسوي. لكن هذه المرأة التي كنت أراها جميلةً لم تفلح في جعلِه مبتهجاً، وبدا وكأنَّ تلك الظلال القاتمة لن تتبدد عن وجهه. حينها كانت مختلفُ الأقوالِ والإشاعاتِ تنتشرُ في القرية، قال أحدهم إنَّه كان يعيش في أسطول المراكب المليء بالعاهرات لنحو ثلاثين عاماً، وإنَّه ضاجع على الأقل مائة امرأة.

- "ما أنْ تخرج السمكةُ من ماءِ النهر تموت من العطش". ثم أكمل الطبيب: في الربيع الثاني عشر منذ وصوله إلى قرية ماي خين كانت الأيامُ تتغيَّرُ إلى الأفضل، ظهرت أر تسوي ذاتَ ليلةٍ أمام نافذتي بشَعرٍ أشعث،

وأذكرُ أنَّ والدتي تنهدت تنهيدةً طويلةً وقالت: "لقد مات هذا الرجل المنحوس". أفزع بكاءُ المرأةِ وعويلُها في تلك الليلة شديدة الهدوء طيورَ العقعق المستريحة في الأشجار الشوكية. ثم ذهبتُ أنا ووالدتي صباح اليوم التالي إلى الكوخ لرؤيةِ الميت، وحين وصلنا كان غطاءُ التابوتِ قد أُغلِقَ بالمسامير. وكان المراكبي قد اشترى التابوتَ بمدخراته، ولكنَّ شخصاً آخر يستلقي فيه الآن. كانت شياو تشينغ تجلسُ عندَ حافةِ الطريق، وقد غيَّرَ حزنها على فاجعة فقدانها لأبيها ملامحَ وجهها وجعله شديدَ الغرابة. تجمَّعَ الناس عند الظهيرة لإنزال التابوت بسرعةٍ في القبر، وكانت مياهُ موسمِ الأمطارِ تهطلُ بين حينٍ وآخر، وأذكرُ أنَّ قطراته جعلت التابوتَ لامعاً. وبعد الجنازة حكت أر تسوي تفاصيلَ تلك الليلة وأصابعها ترتجف: "لقد انقطعَ نَفَسُه فجأة".

مسح الطبيبُ مبضعاً ذا مقبضٍ خشبي بضمادةِ قطن، وبدا شاردَ الذهن، ثم أكملَ: لم أتبادل كلمةً مع هذا الغريب مطلقاً، كانت شخصيته... ربما... وابنته، كنت أعود في مغارب كثيرة مع والدي من استشاراتٍ في قرى أخرى، وأراه مع ابنته يُجدِّفُ في مركبٍ صغيرٍ في النهر ويدورُ حولَ أحراجِ القصب، ربما كان يحنُّ دائماً إلى حياةِ النهر.

فاجأتني إجابته عندما سألته عن أيِّ حكاياتٍ متعلقةٍ بكلمة "تشينغ هوانغ": لم أسمع هذه الكلمة في المنطقة من قبل، لكن على كلِّ حال ربما لها وجود. كانت العاهرات ينقسمن إلى نوعين في مراكب أسر الصيادين التسعَ، هل يمكن أن تكون "تشينغ هوانغ - الأصفر المائل إلى الخضرة" اسماً مختصراً للعاهرات الشابات أو العجائز؟ فالنساء مثل البامبو، يخضَّر وينضج ثم يصبح أصفرَ ويذبل.

وقبيل رحيلي أوصلني الطبيب إلى الخارج. ثم أخبرني كما لو أنَّه تذكَّر فجأة أمراً ما عن شابٍ اسمه كانغ كانغ يعيش في معبد الأسلاف في القرية، "ربما سيخبرك بأمور أخرى".

4

وقفتُ محدّقاً بعضَ الوقت إلى صندوقٍ خشبيٍّ لحفظ الأرز أسفل سور تلك الباحة المتداعي. كانت باحةً شاسعة، تتمايلُ على حواف سورها نباتاتُ الرِّجلة، وكان بوسعي أن أرى في غَبَش أفقَ التلال الخضراء ومساحاتٍ شاسعةً من الحقولِ الصافية. كانت رياح الخريف تدفع بأوراق الشجر المائلة إلى الصفرة صوب الباحة، منذرة بتباشير الموسم البارد.

ـ هذا تابوت ذلك الشخص.

أشار كانغ كانغ إلى صندوق الأرز. بدا شاباً صريحاً. كان يجلس القرفصاء على مِحدَلةٍ حجريةٍ إلى جانبِ البئر، ويعبث بخزفِ وعاءٍ مكسور، وقابل أسئلتي المراوغة بصبرٍ شديد.

ـ في صيف ذلك العام، استمر هطول الأمطار الغزيرة لمدةٍ تزيد عن عشرين يوماً، وغمرت المياه بيوت القرية والأشجار، وهرب الأهالي إلى الجبل لتفادي الفيضان. ثم توقف المطر بعد عدةِ أيامٍ وتراجعت المياه. وفي فجر أحد الأيام، وحين كنت أقف في عِلِّيةِ المعبد وأنظر بذهولٍ إلى الأشجار والبيوت التي انحسرت عنها المياه، رأيت فجأةً شيئاً أسودَ يطفو على مسافةٍ قريبةٍ من جهةِ الشمالِ الغربي. نزلتُ واتجهتُ صوبه. كان تابوتاً. وربما كان مصنوعاً من خشبٍ من الدرجةِ الأولى، إذ بدا شديدَ المتانة. حملتُ أنا وأخي التابوت الثقيل بصعوبةٍ إلى المنزل لأنَّه كان مشبَّعاً بماءِ المطر. وفي

مساء ذلك اليوم، زارنا طبيب القرية الذي انتفض ذعراً ما أن رأى التابوت الموضوع في وسط الباحة وقال: "ظننتُ أنَّ شخصاً آخر توفّىَ". في البداية لم نعرف من أي جاء هذا التابوت، وفكَّرتُ أنَّ الفيضان قد حطَّم حتماً سياج المقبرة خارج القرية، وجعل القبور والتوابيت تطفو. لكن هذه المقبرة تبعد عن القرية نحو لي أو اثنين، وما كان غريباً أنَّ هذا التابوت انجرف مباشرةً إلى القريةِ مثل كلبٍ أسود يعرف الطريق. في اليوم التالي ذهبت أنا وأخي إلى المقبرة، وبالطبع رأينا أنَّ مياه الفيضان قد تركت فتحةً ضخمةً في القبر خارج المقبرة، وكشفت عن حفرةٍ عميقةٍ مستطيلةِ الشكل، وبدت تلةُ القبر مثل زهرةِ قطنٍ متفتحة. وعلمنا فيما بعد أنَّ هذا قبر الرجل الملقّب بـ تجانغ. سوينا القبر بالتراب، ثم جعلنا تلته مدوّرةً مثل خبز المانتو. وفي مساء ذلك اليوم اجتمعت العائلة وتشاجرت حول التابوت. كان أخي الصغير شخصاً ذكياً رغم أنه كان في السابعة عشرة، لكنّه وجد خطيبة في القرية المجاورة، وأصر أن يصنع سريراً من خشب التابوت ويبقيه حتى يتزوج، لكن دموع والدتي منعته في النهاية. قالت: "إن نام المتزوجون حديثاً على سريرٍ مصنوعٍ من خشبِ تابوت، ستراودهم الكوابيسُ كلَّ ليلة". جلس والدي هناك بصمت، إلَّا أنني كنت أعلم ما يجول برأسه، ربما أراد أن يُبقي على هذا التابوت سليماً من دون أن يمَس، لأنَّه كان يبدو مثل تابوتٍ جديد. وفي النهاية استخدمناه كصندوقٍ لحفظ الأرز بعد درسه وقت الحصاد، وفي أوقات أخرى لتخزين الطعام في المنزل.

سَألته:

ـ أَلَم تعثر على شيءٍ بداخله؟

ـ لا. لقد سألني الطبيب عمَّا إذا كان ثمة نقود أو ممتلكات داخله.

ـ أقصد، أَلَم تعثر على كتاب؟

ـ لا.

انتبهت من نظرات عيني هذا الشاب المتقَلبة كفتاة أثناء حديثي معه، أنَّه يخفي شيئاً ما، وأدركت ذلك حينما حكى لي عن الفيضان.

ـ دائماً هناك أشياء داخل التوابيت، فقد دُفِنَ هذا الغريب منذ عقود، ليس معقولاً أن يتعفَّن كلُّ شيء.

بدت على وجه الشاب الرقيق علاماتُ الخوف، وكانت قطع الخزف تتكسَّرُ في يده. وبعد فترة نزل كانغ كانغ من على المِحدَلة الحجرية، ووقف أمامي وقال بصوتٍ خفيضٍ جداً:

ـ لا شيء، أقصد لا شيء، ولا حتى عظام الجثة.

أصابني الذهول!

ـ تعجبتُ في البداية، كيف لهذا الغريب اللعين أَلَّا يتبقى منه شعرةٌ أو عظمة؟ ربما نهب أحدهم قبره. لا يعرف أحد عن هذا الأمر إلَّا أنا وأخي، لكنَّني أشعرُ بالخوف الآن، وأفكِّرُ أحياناً في تحطيمِ هذا الصندوق وحرقه.

كان الصندوق يحتل زاويةً من زوايا الباحة بصرامةٍ وجمود، وثمة زهرة لبلاب تتسلق جدار الصندوق الذي اصفرَّ لونه. كان يبدو كحياةٍ تلاشت منذ زمن وخلَّفت وراءها آثاراً قابلةً للإدراكِ والتمييزِ بشكلٍ ما، وأيضاً مثل القول المأثور: الجزءُ الأكثرُ دِقةً محفوظٌ في الفلكلور المتداول.

5

عثرتُ على شياو تشينغ في يومِ مهرجان التاسع المزدوج[11] إلى جانبِ بِركةٍ دائرية، بدت في الخمسين من عمرها، وقد اختفت ملامحها الجميلة مثل أغنيةٍ شعبية، أو طائرٍ رحل إلى الأبد عن عشه. كانت الشيخوخة مثل حاجزٍ قاتمٍ يفصلها عن الماضي.

كانت تجلس القرفصاء على أرضٍ جافةٍ بعيدةٍ عن الريح، تحمل رزمةَ ورقٍ أصفر مُجعَّد ما لبثت أن أحرقته. قالت لي: "لقد رأيتُكَ خلال الأيام السابقة"، فأجبت أنَّني أريد الحديثَ معها في أمرٍ ما. رفعت رأسها وألقت نظرةً عليَّ وقالت: "هل تريد أن تشتري مني أرانب؟" هززت رأسي رافضاً فابتسمتْ. "إن أردت أن تشتري سريراً أو كراسي فمن الأفضل أن تتحدث إلى زوجي". كنت أعلم أنَّ زوجها نجَّار.

ـ لِمَن تحرقين الورق؟

ـ ...

ـ لِمَ لا تحرقين الأوراق عند قبرِ والدك؟

ـ ...

أعطيتها سيجارة فأخذتها ودسَّتها بمهارة بين شفتيها، وفي تلك اللحظة احترق الورق الأصفر تماماً. نفضَت التراب عن لوحٍ حجريٍّ أسود وجلسَت. لم يكن من الصعب التقرب من هذه المرأة ذات الوجه الحنون كما ظننت،

(11) مهرجان التاسع المزدوج: هو عيد صيني تقليدي يحل في اليوم التاسع من الشهر القمري التاسع، وهو يوم "عيد المسنين". ينظر إلى هذا اليوم أنه فرصة لرعاية المسنين وتقديرهم، وتتجمع العائلات للتنزه وشرب نبيذ الأقحوان.

ربما اعتادت أن تُميت الذاكرة، وأن تجعل براعم جذور الألم تنبثق في قفرِ دواخل نفسها. كانت تأخذ أنفاساً كبيرة من السيجارة في هذا الصمت المطبق. شَعَرتُ أنَّ ملامحَها وبلوزتَها الحريريةَ السوداءَ وثديَها الثقيلَ النافرَ من صدرِها غرقى في الماضي. وبعد أن أنهت سيجارتها الثالثة روت لي ما حدث في شتاء العام الفائت.

كان صباحاً تساقطت فيه الثلوج، وشياو تشينغ كعادتها في المطبخ تجهز الطعام، وزوجها في غرفةٍ مليئةٍ بالأخشابِ والنشارة. كان الطقسُ شديدَ البرودة، وتجمَّدت حبالُ الحبر، فانتظر أن تبدأ زوجته في إعداد الطعام ليذيبها على سخونةِ جدارِ الفرن. لم يتساقط ثلجٌ غزيرٌ كهذا منذ وقتٍ طويل. كانت ترى عبر الباب الموارب ابنها الوحيد يلعب في الثلج الذي تتساقط حباته من شقوق القرميد، وترطِّبُ القشَّ ممَّا صعَّب عليها إشعال النار، وملأ الدخان الكثيف المرتد المكان. رأت في الدخان الكثيف ابنها يدخل وملابسه ملطخة بالثلج. بدا وكأنه يهمس لوالده - الذي دمعت عيناه من سخام الدخان - بأمرٍ ما في أذنه فدفعه بعيداً. وبعد أن أخرجت شياو تشينغ الطعام من الفرن، أمسك الصبي طرف ملابسها قائلاً إن هناك رجلاً مُسِنًّا نحيفاً يتجول في الخارج، فرافقته حيث لم يكن ثمة أيُّ أثرٍ حتى لطائرٍ في تلك الريح الثلجية. وخطَر لها أنَّه مجرّد مُسِنٍّ يتسوّلُ طعامَه، لذا لم تهتم. ثم عاد الصبي وذكر الموضوع مرَّةً أخرى على الغداء قائلاً إنَّ هيئة ذاك المُسِنّ في غاية الغرابة، ثم وصف ملامحه بالتفصيل.

ـ "الرجل الذي وصفه ابني يشبه والدي، حتى الملابس التي ارتداها. وكان والدي حينها متوفياً منذ سنواتٍ عدّة. ورغم غرابة الأمر، فإنّني لم أفكِّر فيه. ولازمني شعورٌ طيلةَ اليوم بأنَّ شيئاً ما في غير محله. وفي مغرب

ذلك اليوم، مات ابني غرقاً في هذه البركة، سقط وهو يلعب على الجليد. ورأيت أنَّ ثمة أسباباً ما جعلت ما حدث قد حدث، لكن أهالي القرية لم يصدقوني عندما حكيت لهم ذلك."

هبَّت ريحٌ قويةٌ على أوراقِ الشجر وأخذت معها بقايا الورق المحروق. كانت شياو تشينغ تحدق إليَّ بذهول، وبدت تعابيرُ وجهها رصينة، وكأنَّها انفصلت عن العالم. تذكَّرتُ حينها كتاباً بعنوان "الطوطم والنار"، جاءَ فيه أنَّ بعض المقاطعات في جنوب الصين تحدث فيها دائماً ظاهرةُ تقمُّصِ الأرواح، ثم رحت أفكِّرُ أنَّ الناس في الأرياف يعزون الكوارثَ دائماً إلى إرادةِ العالمِ السفلي. ولا أعرف إلى أي مدى كانت قصة هذه المرأة حقيقية، لكن من الواضح أنَّها أصابتني باضطرابها وحزنها على الفور. كان كلُّ شيءٍ يحدث في هذه القرية الجبلية النائية مثل كتلةٍ جليديةٍ متدليةٍ من إفريزِ بيتٍ تتغيرُ ببطءٍ كلَّ ثانية.

ـ أين كانت والدتُك حين جئتِ ووالدُكِ إلى القرية؟

ـ ربما ماتت منذ زمن، لم أرها من قبل، وربما لم يكن والدي هو والدي الحقيقي، هذا ما يظنه كلُّ أهالي القرية.

ـ يبدو أنَّ والدك لم يألف حياةَ القريةِ مطلقاً، أَليس كذلك؟

ـ أجل، لقد صادف وصولنا إلى القرية موسم الأمطار في هذه المنطقة، وقد أُغلقت الأبواب في وجهنا، فلم يكن أمامنا إلَّا الانتظار في المطر، وفيما بعد أخذنا المراكبيُّ إلى منزله، ونام هو في قاربه. لم نكن معتادين على شيءٍ حينما جئنا هنا للمرَّةِ الأولى. وفي المساء، أثناء نومي في منزل المراكبي، كنتُ أشعرُ في حلمي أنَّ السرير يطفو فوق الماء مثل مركب. كانت النساء في القرية قليلات، والمراكبيُّ أعزب رغم تجاوز عمره الستين. أخذني إلى

قاربه في اليوم الثاني من وصولنا، وعضَّني حتى أدمى جسمي، وحين عدت إلى المنزل أصابتني الحمى. كان والدي يحلُّ أزرارَ ملابسي ويمسحُ الجروحَ بالماءِ المالح... وبعدها انقلب قاربُ المراكبي.

6

في المساء، جلستُ على ميزان بمنصة باردٍ في مصنع الدقيق متأملاً ظلالَ الأشجار الوامضة والغيوم المسرعة خارج النافذة، ولم يغمض لي جفنٌ طيلةَ الليل. فقدت كلَّ اهتمامٍ تجاه تلك الكلمة التي يبدو لي الآن أنَّ البروفيسور تان وي نيان هو مَن اخترعها. أمَّا الشذرات المتعلقة بتلك الخرافة - صفّ بيوت متناثرة، وغاباتُ صفصاف، وأرضٌ خالية - فقد كانت تتداخلُ مراراً مع ذكرياتِ طفولتي وتقتحمُ أحلامي.

صادفتُ وقتَ الظهيرةِ حارسَ غاباتٍ عند ناصيةِ الشارع في القرية، منكمشاً أمام عتبةٍ باليةٍ لمتجرِ شايٍ قديم، ولعابه يسيلُ مُبلّلاً كُمّ قميصه. يحدِّقُ إلى طبقاتِ الغيومِ الصفراءِ المنخفضة، ويميِّزُ جميعَ الأصواتِ المختلفةِ حوله.

ـ "الأشياءِ كلّها تعيشُ عمراً أطولَ من الإنسان"، قال الحارس. وعن أمرٍ حدث منذ أربعين عاماً، "كان يتذكَّرُ كلَّ شجرةِ بطاطا صينية وكلَّ شكلِ حجرٍ في قاعِ النهر". اليوم السابع عشر من الشهر القمري الأول هو اليوم الذي قرَّرَ فيه الغريبُ فجأةً أن يتزوج، ورآه الناس في صباح هذا اليوم مقرفصاً عند ضفة النهر يحلق ذقنه بعد أن كسر الجليد. كان حارسُ الغابةِ ووالدتُه في البستان في الضفة المقابلة يثبِّتان التربةَ حول أشجار البشملة التي غرسا شتلاتها مؤخراً. ورأى وقتَ الظهيرةِ محفةً تهبط متأرجحةً من

جانب التل وتتجه ببطءٍ إلى القرية. بدا أنَّ المحفةَ قادمةٌ من مكانٍ بعيدٍ جداً، وكانت أرجلُ الحمالين مربوطة، وبدا عليهم التعب البالغ من هيئةِ مشيهم. حجبت والدته أشعةَ الشمسِ الباهرةَ بيدها وتطلَّعت تجاه القرية وقالت: "يبدو أنَّ أحداً سيتزوج".

وبعد فترة توقفت المحفة أمام الكوخ عند ضفةِ النهر، ورأى خاطبةَ القريةِ تقفُ على أطراف قدميها تلوِّحُ بيدها وتقول شيئاً ما للحمالين، وخلفها ألصقت شياو تشينغ للتو ورقاً أحمرَ على هيكلِ الشباك. رُفعَت ستارةُ المحفةِ ونزلت منها امرأة، ولأنَّ ضباباً خفيفاً يغطِّي النهر فلم يستطع أن يتبين ملامحها، ولم يعرف أهالي القرية كيف حصل الغريبُ على هذه المرأة. وعندما ألقى حارس الغابة المنجل ليذهب إلى القرية ويعرف ما يجري سمع والدته تغمغم قائلة: "يا لهذا الرجل المسكين، جعل زواجه يبدو كجنازة".

يبدو أنَّ أهالي قرية ماي ينسون الماضي بسهولة، وبعد مُضي سنواتٍ، أصبحوا شيئاً فشيئاً وَدودين تجاه هذا الغريب المسالم. كانت نساءٌ يحملن له تمراً وحبوباً، ويساعده كبارُ السن في العناية بكوخه البالي، وأصبح وجهه أكثرَ ابتهاجاً ورقة. واقترح خادمُ معبدِ الأسلافِ الكهل بناءَ لوحٍ تذكاريٍّ للأسلاف داخل المعبد ليتزوج العروسان الجديدان "الشابان" هناك، لكن الغريب رفض بهدوءٍ مُصراً على أنَّ أسلافه ليسوا في المعبد بل في الماء، وكان يأخذ تلك المرأةَ طويلةَ القامة إلى ضفة نهر سوتزي ويركعان عند مائه ويُقبِّلُون طينه.

كانت امرأةً فائقةَ الجمال.

هبَّت ريحٌ عاصفةٌ في المساء وخلعت باب منزله الخشبي، فاستعد

الحارس ليذهب إلى القرية ويأتي ببعض المسامير لتثبيته. سار في الطريق المتجمد المؤدي إلى القرية حاملاً سراجاً، وحين عبر على الجسر الخشبي الضيق، رأى الكوخَ مضاءً، وأسبغ نورُ المصباحِ لوناً برتقالياً على الأشجار في هذه العتمة الهادئة. خفق قلبه بشدة. "كلَّما تذكرت نور القمر في تلك الليلة غمرني شعورٌ غامضٌ بالألم"، قال الحارس. كلَّما ظهرت أمامه تلك المرأة، امتلأ عقله بـ"أفكارٍ سخيفة". مشى الحارس إلى الضوء، وغدت خطواته أكثرَ خفة، ثم جلس القرفصاء أسفل نافذة الكوخ الطيني الحمراء، ومزق الورق المثبت عليها.

بحُلول الشهر القمري الأوّل من تلك السنة، كان قد مرّ عشرون يوماً على بدايةِ الربيع، لكن الطقس بقيَ شديد البرودة كمنتصف الشتاء، وهبَّت رياحٌ قارسةٌ على قمم الأشجار العارية من أوراقها، باعثةً أصداءً خافتةً بين إفريز المنزل وشقوق القرميد. كانت المرأة تجلس على حافة السرير والرجل يجلس أمامها ويتأملها بافتتان. وبعد قليلٍ صدر صوتٌ لدخولِ المرأةِ الحمام. رآها الحارس ترفع الستار وتتهيأ لربط حزام بنطالها، وجذبها الرجل من يدها فانزلق بنطالها الأسود الفضفاض على الأرض.

قال الحارس: "لم أرَ جسدَ امرأةٍ سوى مرةٍ واحدةٍ في حياتي، وشعرتُ بقلبي يرتفعُ إلى حنجرتي، ويبدو لي الآن أنَّه لا غنى عن المرأة". رفع كوب الشاي وأخذ رشفة ثم مسح لحيته الخفيفة والبيضاء عند زاويتي فمه وأعاد ما قاله للتو: "أجل، لا غنى عنها، ربما ستفهم هذا الأمر حين تشيخ".

كان الحارس جاثماً أسفل النافذة حين رأى الرجل في الضوء الخافت للمصباح يخلع عنها ملابسها كلَّها، ثم يقبلها بادئاً من أصابع قدميها الصغيرتين، ثم مرتفعاً ببطءٍ إلى منتصف جسدها المرتجف. ثمة شيءٌ

في ملامحِ وجهها يوحي بأنَّ هناك خطباً ما، وبدا على عينيها المسكينتين كعيني فأرٍ قلقٍ من شيءٍ على وشك الحدوث. كانت حركات الرجل تزداد خشونة، وجسدها يرتجف بشدة، بعدها احتضنها وأخذها إلى السرير. كان السرير بالياً ويصدر صريراً، وجسدها يتمايل مثل ماءٍ في كوب. في تلك اللحظة سمع الحارس شياو تشينغ تسعل في نومها في الغرفة المجاورة، وبدا الغريب متردداً بعض الشيء، ثم خلع ملابسه كاشفاً عن عموده الفقري الضامر كثعبانٍ نحيل.

"رأيتُ شيئاً أصابني بالحيرة: بعد صعود الرجل إلى السرير بوقتٍ قصير، خرج من الناموسية مرَّةً أخرى، وارتدى ملابسه بحزنٍ وجلس إلى طاولةٍ موضوعةٍ إلى زاويةِ الجدار. لم أرَ وجهه بهذه الفظاعةِ من قبل. أشعل سيجارة وسحب منها أنفاساً ببطء، وكانت المرأةُ تبكي بصوتٍ خفيض. لم أعرف ما حدث. وخمَّنتُ في البداية أنَّه عاجزٌ عن هذا الأمر، لكني سمعتُ لاحقاً أنَّ فتحة صغيرة تنقصها قرب مؤخرتها".

وهكذا ظلَّ الغريبُ جالساً في منزله حتى اليوم التالي. توقفت الرياح بعد منتصف الليل، وانطفأ فتيل المصباح، وانجرفَ الحارس إلى عالم الأحلام أسفل النافذة، وأيقظته شمس النهار الدافئة في الصباح.

7

اشتدَّ فصل الخريف في موسم نضج زهور القطن. وذهبتُ في هذا الصباَح إلى البِركة مرَّةً أخرى. كانت أوراق الشجر الصفراء الذابلة وحواف الأعشاب مغطاةً بطبقةٍ خفيفةٍ من الجليد، وحلَّقت العصافير وقت المغيب، وازداد الهواء جفافاً في أصوات تغريدها الوحيدة.

كانت شياو تشينغ تسلخُ أرنباً في غرفةٍ مظلمة، وسترتها السوداء ملطخة بالدماء. "لقد هجم ذئبٌ على أرنبين مساء الأمس، تزداد الذئاب في القرية حين يكون الخريف على وشك الانقضاء". وسألتني بعد قليل إن كان بوسعي أن أساعدها في إشعال الموقد، فوافقت. "أعلم أنك تسأل عن والدي في أرجاء القرية، لقد مات منذ أكثر من أربعين عاماً، لا أفهم بماذا ستفيدك الأمور التي تسأل عنها". فابتسمتُ لها.

ـ من أين أتيت؟

ـ من المدينة.

ـ هناك حتمًا كثيرات في المدينة يَمْتهنَّ ذلك الأمر؟

ـ أي أمر؟

ـ أعني العاهرات.

ـ أجل في الماضي.

ـ كان هذا الأمر طبيعياً في قواربنا، لكن الناس على اليابسة أخذوه على محملِ الجد. قليلون من أهالي القرية يتحدثون معي رغم أنني جئت وعشت بينهم هنا منذ أكثر من أربعين عاماً. ويُقال إنَّ العابرَ من قريةِ ماي، يسير حول الطريق مُتجنباً القرية. كان الناس على قواربنا مجموعة من الصيادين الذين يؤدون واجبهم ويعرفون حدودهم، وفيما بعد ساعد أسلافنا قاطعَ طريقٍ يدعى تشين يو ليانغ في معركةٍ ما، وبعد أن اعتلى الامبراطور تجو العرش أصدر أمراً بمنعنا من الصعود إلى اليابسة، ثم أصابت هذه المنطقة في إحدى السنوات مجاعةٌ شديدة، فبدأت النساء في إغواء الضيوف، وشيئا فشيئاً تحوَّلت قواربنا إلى ما عُرف عنها فيما بعد.

ـ إلى أين ذهبت أر تسوي بعد وفاة والدك؟

ـ ماتت.

ـ ماتت؟

ظلَّت العجوزُ صامتةً لفترةٍ طويلة. ثم نهضت وغسلت الأرنب المنزوع جلده في طست، ثم وضعته في قدرٍ معدنيٍّ على النار، وعادت إلى حيث كانت تجلس.

ـ "كانت أر تسوي امرأةً طيبةً حنون، وماتت بسببي. أُعيدت إلى بيتِ أهلِها بعد وفاةِ والدي، والذي يبعد اثني عشرة لي أسفل الجبل. جاءت لزيارتي في صيف إحدى السنوات، وجلبت لي عدة معاطف. وأثناء الأيام التي مكثتها في القرية حدث ذلك الأمر: كنَّا جالستين في مساء ذاك اليوم نَقصُّ نعالَ الأحذية حين سمعنا صوت نباح الكلاب في مدخل القرية، فقالت أر تسوي، يبدو أنَّ غريباً دخل القرية. وبعد وقتٍ قصير توقفت الكلاب عن النباح، فظننا أنَّ شيئاً لن يحدث، لكنّ القنديلَ الموضوعَ في كوَّةِ تمثالِ بوذا انطفأ، واعتقدت في البداية أنَّه انطفأ بسبب الرياح، وحين نهضت لإشعاله من جديد، عَبَرَ ظل أسود بسرعة خاطفة، ولم نستطع أن نرى مَن هو في العتمة. شعرتُ بحافةٍ حادةٍ توخزُ خصري ودفعني الظلُّ الأسودُ إلى زاويةِ الجدار، وأدركت نيَّةَ هذا الشخص، فقد جذب عني ملابسي برفقٍ وأحدث مَزقاً كبيراً كشفَ عن كتفي، ثم وضع شفتيه على صدري، وشممتُ رائحةَ خمرٍ كثيفة".

ضمَّت العجوز يديها أمام صدرها كأنَّها تشعرُ بالبرد، أو كأنَّها تستغرق في ذلَك الماضي المُروِّع وبانت على وجهها علاماتُ الرعب. حدَّقتُ في أحشاء الأرنب الملقاة على الأرض وسَرَت برودةٌ في قلبي.

ـ "لشِدَّةِ الرعبِ الذي تملَّكها، فقد هدأت بعد وقتٍ طويل. اندفعت

من الجهة الأخرى من الغرفة وركعت على الأرض ولفَّت يديها حول ساقيه وقالت له: إنَّها لا تزالُ صبيةً وعذراء، وأنت تريد هذا الأمر فمارسه معي... بدا أنَّه يبتسم، ثم التفت ببطء، وشعرتُ به يلوِّحُ بالخنجر إلى الأسفل، فأفلَتَت أر تسوي يديها".

ـ "وحين أفكِّرُ في الأمر الآن"، أكملت شياو تشينغ، "أرى أنَّه لم يكن على أر تسوي أن تعترضه بهذه الطريقة، فقد اعتَدَتُ على رؤية هذا الأمر على القوارب منذ صغري. كان بعض الموظفين الحكوميين والتجار يأتون كلَّ ليلة، وفي أحيان أخرى يأتون قبل أن يحل الظلام ويضاجعون العاهرات على حصائرَ مفروشةٍ في سقيفةِ المركب. حين دفعني هذا الرجل إلى الأرض، لم أشعر بالخوف، بل شعرتُ في البدايةِ بشيءٍ من الألم. سمعت أنفاس أر تسوي تشتدُّ لهاثاً بين أصوات الجداجد، وبعد رحيله تصلَّبَ جسدُها كالحديد. وبعدها، زارتني خاطبةُ القرية في إحدى الأيام وسألتني إن كنت أرغبُ في الزواج، فوافقت، وبعد عدة أيامٍ تزوجت هذا النجار، إنَّه رجلٌ صالح".

ـ "كلَّ الأشياءِ تمر، إلَّا الموتى لا يُبعَثون إلى الحياةِ من جديد". قالت شياو تشينغ ثم هوَّت بمروحةٍ من التيفا على الموقد فازدادت النارُ اشتعالاً وفاحت رائحةُ لحمِ الأرنبِ الزكية.

أشرقت الشمسُ في تلك الأثناء وأصبح النورُ في الغرفة أكثرَ سطوعاً. وحيث نظرتْ إلى البعيد خارج النافذة شاهدت عدةَ فلاحاتٍ يقطفن زهورَ القطن.

ـ ألَم يؤلف والدكِ كتاباً؟

ـ لا، إنَّه أُمِّيّ.

ـ حَسَنٌ، أَلَم تتوارثوا كتباً عن أجدادكم، كتاريخِ العائلةِ مثلاً؟

ـ لا أدري، إن كان هناك كتاب، فقد دُفِنَ مع والدي حتماً، ربما كان يعلم عن هذا الأمر، لكنه مات قبل أوانه ولم يتوقع أحد ذلك. إن بقي على قيد الحياة لكان في الثمانين من عمره الآن. لن أنسى وجهه أبداً. كنتُ دائماً أذهبُ إلى سوقٍ بعيدٍ جداً عن القرية لأبيع الزهور، أبيع الأقحوان الأصفر في الخريف وزهور الجاردينيا في الربيع، كان يجلس أمام المنزل كلَّ يومٍ تحت شجرة دردار مُنتظراً عودتي.

مسحت العجوزُ عينها بظهرِ يدها ونظرت بشرود إلى الدخان الخفيف المتصاعد من الموقد.

ـ لا أزال أشتاق إليه كثيراً. في إحدى المرات كنتُ أستحم...

حينئذ دخل زوجها، فنهضت شياو تشينغ وأنزلت عن كتفه المنشارَ والمطرقة وعلَّقت حاجياته على قفص الدجاج. اتجه النجار مباشرةً إلى خزان الماء وغرفَ مغرفةَ ماءٍ باردٍ وشربها ثم قال: "لا بد أن تُقطَف زهورُ القطن في الحقل".

8

مَغيبٌ تلو آخر، مرَّ الوقتُ سريعاً دون أن يترك أثراً في سماء القرية المستوية المنحدرة، أو في سلاسل الجبال والبراري الممتدة خارج النوافذ والأسيجة. كنت مهموماً طيلةَ الوقت بمصير ذلك الرجل المسكين المُلغِز كما الأحجية، وحين عقدتُ العزمَ على الرحيل عن هذا المكان، باغتني إحساسٌ بالوهم وعدم الواقعية حيال تلك القرية؛ نهرها الساكن، رمال شاطئها الحمراء، أهلها السائرين بسرعةٍ وظلالهم، كلُّ ذلك بدا وكأنَّه

مُختَلَق، وكأنَّها أشياء نراها في اللوحاتِ التصويرية.

وصلني خطابٌ وأنا في الردهة يوم عودتي إلى المدينة، من الصبيةِ التي كانت تغسل ملاءات السرير في البِركة أمام باب المنزل حين زرتُ لي غوي في خينغ تانغ في شتاء 1967. كتَبَت في الخطاب أنَّه مصابٌ بمرضٍ شديدِ الخطورة، وربما لن يعيش طويلاً، وأراد بشدةٍ قبل رحيله ومن أجل تلك الصداقة السعيدة التي جمعتنا معاً منذ سنواتٍ أن يراني. قرأتُ الخطابَ مرَّةً أخرى مساءً تحت نور المصباح، وانتبهت إلى أنَّ ختمَ البريدِ قد امَّحى، ومع ذلك استطعتُ رؤيةَ أنَّ الخطابَ مُرسلٌ منذ شهر. لاح أمامي في اللحظةِ ذاتِها وجهُ الرجلِ المُسن بائعُ سُكَّرِ الشعير بعظمَتي خديه البارزتين وابتسامةِ الصبية العميقة، وفي صباح اليوم التالي ركبتُ القطار المتجه إلى الشمال.

بعد ثلاثةِ أيامٍ، وصلتُ ظهراً، إلى ذلك البيت المنخفض القابع خلف غابات البامبو. كان الرجل يُقيِّلُ في ضوء الشمس الدافئ مستنداً على السور، لكنَّه سرعان ما رآني ونهض متكئاً عليه واتجه صوبي.

ـ كنت واثقاً من مجيئك. لقد سخر مني ملكُ الموت في الأيامِ السابقة، استلقيتُ على غطاءِ التابوت نهاراً كاملاً، واستيقظتُ في المساء.

جلسنا متجاورين عند السور، وأثناء حديثي معه بدا وكأنَّني أنظرُ إلى آلةٍ في حالةٍ ممتازة، وكل أجزائها صدئة، لكنها تعمل ببطءٍ بفعل القصور الذاتي. لم يبدُ مريضاً، بل كان التطور الطبيعي للشيخوخةِ قد دفعه إلى حافةِ الموت.

ـ "لم تكف ابنةُ أخي عن الحديث عنك طيلةَ اليوم قائلةً إنَّكَ على الأرجح لم تأتِ بسبب انشغالك، لكنِّي كنت واثقاً من مجيئك." كانت

الصبيةُ تعلِّقُ الملابس على سلكٍ مجلفن، فالتفَتَت إليَّ وابتسَمَت.

ـ زرتُ قرية ماي مرة أخرى، وأثناء عودتي منها تلقيتُ خطابكما.

ـ قرية ماي؟

ـ القرية التي تقابلنا فيها.

أومأ برأسه، وغارت عيناه الرماديتان في محجريهما، وكان يحدِّق إلى عدةِ طيورٍ محلِّقة، وكأنَّه يريد أن يحشدَ بعضَ النورِ أمامَ عينيه.

ـ ثمة أمرٌ لطالما أردت أن أسألك عنه.

ـ أيُّ أمر؟

ـ هل تذكر تلك الليلة في قرية ماي؟

ـ نعم أذكرها، كنَّا نبيت في منزل طبيب.

ـ بعدها هطل مطرٌ غزير.

ـ أجل.

ـ ويبدو أنَّك خرجت تلك الليلة.

ذُهِلَ الرجل وأصابته نوبةُ سعال، فجاءت الفتاة وضربته على ظهره عدةَ ضرباتٍ، فالتفت وبصق بلغماً لزجاً في الأعشاب عند السور، ثم ابتسمَ وقال: "إنَّني مصابٌ باضطراب السير أثناء النوم منذ صغري، ولا أعلم أيَّ شيءٍ عن الأمر الذي تتحدث عنه، ظننتُ أنَّني نمت نوماً عميقاً تلك الليلة".

ـ لقد خرَجْتَ مرَّةً حقَّاً.

ـ ربما. في إحدى المرات سرتُ مُسَرْنَماً طوالَ الليلِ إلى البراري، وفي فجر اليوم التالي وجدتني ابنةُ أخي في حقلِ قمح.

بعد الظهيرة فكَّرتُ في الاستلقاء والراحة قليلاً، إذ تملكني إرهاقٌ ساحقٌ

بسبب التجوال في الأيام الماضية، حينها دخلت الفتاةُ إلى الغرفة، وقالت إنَّ الطقسَ سيشتدُّ برودة، وإنَّ قشَّ الأرز قد اسودَّ وأصبح رقيقاً بفعل الرياح، وسألتني إن كان بإمكاني أن أساعدها في وضعِ قشٍّ جديد، فوافقتُ على مساعدتها رغم أنَّني لم أصعد سطحَ منزلٍ من قبل.

ظللتُ أكدِّسُ القشَّ حتى المساء، كنتُ شديدَ البطء، بينما الرجل يقف أسفل إفريز المنزل ممسكاً بقنديلٍ ويرتدي سترةً غيرَ مبطنة، وجعلتني هيئتُه أفكِّرُ في ثمرةِ جوزٍ قضَمَتَها عثَّة، فسرى في قلبي مدٌّ من الحزن.

مكثتُ ثلاثةَ أيام، وقبيل رحيلي، أصرَّ على مرافقتي إلى غابات البامبو، تبعنا كلبٌ، ثم توقفنا عند مجرى جدولٍ جاف.

ـ هذه المنطقة قليلة السكان، لذلك أتمشى مغيبَ كلَّ يومٍ هنا، ويرافقني تشينغ هوانغ دائماً قبل أن يحلَّ الظلام.

ـ تشينغ هوانغ؟

ـ إنَّه فصيلةٌ عريقةٌ من الكلاب، لونه فريدٌ للغاية، ظهره أخضرُ مائلٌ للزرقة، وثمة بقعةٌ دائريةٌ صفراءُ على جانبِ بطنه، تبدو مثل ضمادة.

رفعتُ رأسي ونظرتُ إلى ذلك الكلبِ الذي يتَشمّم رائحةَ الحقولِ البريةِ ويهزُّ ذيلَه مبتعداً عنا.

9

بعد عدة سنوات، كنت في الطابق الثاني في المكتبة المحلية أقرأ كتاب "تسي زونغ" الذي تم تأليفه في عهد الإمبراطور تيان تشي لأسرةِ مينغ، وفي الصفحة 971، صادفتُ كلمة "تشينغ هوانغ":

تشينغ هوانغ: نباتٌ عشبيٌّ مُعمِّر. مغطى بزغبٍ رماديٍّ وشُعيراتٍ غُدِّيَّة.

جذروه صفراء ويزهرُ في فصلِ الصيف.

هذا النصُّ إهداءً إلى السيد تجونغ يوه لوه.

سي[12] مُطَرَّز

الفراشة

عندما أُخرِجَ فينغ تزي تسون من اصطبل الخيول كانت شمسُ منتصفِ الظهيرة تنشرُ أشعتها البرَّاقة، والهواءُ رطباً ودافئاً، وقد شَعرَ بالنسيم المُنعشِ يتخلَّلُ مسامَ جسدِه، بينما رائحةُ الروثِ تغمرُ المكان.

نسي فينغ تزي تسون الزمنَ قليلاً. وكان يُخمِّنُ دائماً بينه وبينِ نفسه مصيرَه غيرَ المتوقع، منذ حبسِه في اصطبل الخيول. ولم يكن يعلم كيف سيتعامل مع هؤلاء الريفيين اللطفاء، كما لم يكن مُستعداً للخطر المستتر في نور الشمس الصامت.

أوَّلُ ما أثار انتباهه حين تخطَّى بوابةَ الإسطبل زقزقةُ عصافيرَ صغيرةٍ على أسيجةِ الشجيراتِ البعيدة، إذ مضى وقتٌ طويلٌ منذ أن رأى عصافير. كان بوسعه فقط أن يسترجع في ذاكرته أصواتَ زقزقتِها في الليالي المظلمةِ الكئيبةِ ليلةً بعد الأخرى، ويتذكَّرُ الغيومَ الرماديةَ البُنِّيَّةَ الطافيةَ في السماء والنجومَ اللامعة.

(12) آلة وترية تشبه القانون، مكونة من خمسين وتراً.

كان مجبولاً على الولع بالأشياءِ التي تجلبُ الكآبة؛ خرير النهر الهادئ، رائحة الزهور والحشائش القوية، صوت الساعة المائية البعيد، وحركة ظلِّ عصا المزولة البطيء. أمّا الآن فقد أشعرتْه أشعةُ الشمس الحارقة والمتشابكة بالمذلَّة. كان يُساقُ مثل بهيمةٍ سائراً بخطواتٍ متعثرة عبر صفوفٍ من أشجار النبق صوب مدخل القرية.

تجمَّع عددٌ من مزارعي القطن أسفل شجرةِ لبخ إلى جانب النهر. بدت أفاريزُ المنازلِ المعلَّقة العالية ذاتَ شكلٍ غريب، مثل خفافيش تحلِّقُ في السماء وتستريح هناك. ومن بعيد، بعث فيه المزارعون تحت نور الشمس وظلالهم الممتدة على الأرض الرملية شعوراً بألفةٍ وحميميةٍ كالماضي. كان يتأملهم طويلاً عبر شقوقِ السياج الخيزرانيّ، أكانوا منهمكين في غرسِ الشتلات أو جمعِ المحاصيل، مثل نهرٍ يتدفقُ حُرّاً، مثل أشجارٍ ساكنةٍ شامخة...

وقف فينغ تزي تسون في ظلِّ الإفريز، وغمره النسيمُ الباردُ القادمُ من النهر، وكانت أشعةُ الشمس تلمعُ على الحقولِ في الضفةِ المقابلة، فبدت بعيدةً ووهمية.

"أعطني قليلاً من الماء". قال فينغ تزي تسون إلى شابٍ يقف إلى جانبه.

كان الشابُ يديرُ ظهرَه له، ويحاولُ فتحَ غطاءِ جرَّة الخمر. فالتفت وألقى نظرةً عليه، ثم قال بنبرةٍ متأنيةٍ مشوبةٍ بسخرية:

ـ لا يهم الآن إن شربت أو لم تشرب.

مَاذا يعني؟ دهمه شعورٌ مشؤومٌ جعله يتنفس بصعوبة، وتأمَّلَ مليّاً كلامَ هذا الشاب وتلميحاته التي بدت غريبةً بعض الشيء: أَلعلَّه يحاول إخافتي؟ لن يصل بهم الأمرُ إلى قتلي، أَليس كذلك؟

كانت زهراتٌ من أشجار الصفيراء ذاتُ رائحةٍ كثيفةٍ وحلوةٍ تطفو مع جريان النهر؛ رفرفت فراشاتٌ بأجنحتها الملونة وظلَّت تحوم في عبقِ الزهور.

تذكَّرَ فينغ تزي تسون حلمَ الفراشةِ للفيلسوف جوانغ زي، وأحسَّ للتو أنَّه في متنِ تلك الحكاية.

هل هو حُلْم؟ يُربِكُ الزمنُ المضطربُ دائماً الحدَّ الفاصلَ بين الواقعِ والأحلام؛ فقد حَلُمَ عدةَ مرَّاتٍ بأنَّه في اصطبل للخيل ووجهه ملطخٌ بروثِ الأحصنة. تبعثُ لحظةُ استيقاظِه من الكوابيس في العادة البهجةَ في نفسه، ويصفو ذهنه شيئاً فشيئاً، ويحظى بسندِ الواقعِ القوي، ويتراجع الخطرُ في الظلام على مهل، ويستعيدُ كلُّ شيءٍ سكونَه المعتاد، فيصبحُ بوسعِه أن يشرب الشاي براحةِ بال، ويقرأ في كتابٍ كلاسيكي، وأن يتأمل في ضوءِ القمر الأزرق الباهت... وإن أراد، فبوسعه كذلك أن يخرج من بيته المسقوف بالقش ويجلس وسط الحقول تغمره رائحةُ النباتاتِ المنعشة، ويتأمل قطرات الندى على سنابل القمح، ويَزِنُ كرةَ قطن، أو أن يتجه إلى غابات البامبو وراء المنزل، وفي صفير أغصانها، يجلس في الغابة الكثيفة، الصامتة، في انتظار الصباح...

عندما انتقل فينغ تزي تسون إلى هذه القرية النائية قبل عدةِ سنوات، لم يكن أحد يعلم هويته الحقيقية. ولم يسكن في القرية كذلك، بل بنى كوخاً عند ضفة النهر القريبة. ورغم إلمامه بأمور الزراعة، ومواظبته على غرس النباتات، وزرع قطعةِ أرضٍ إلى جانب النهر بالفول والقمح والقطن، لكنّ أهالي القرية لم يعدوه فلاحاً. وفي الواقع، كانت بشرته بيضاء، ويكسو وجهه الهم والقلق، وهزيلاً قليلَ الكلام، غيرَ منسجمٍ على الإطلاق مع كلِّ شيءٍ هنا. واعتاد الناس أن ينظروا إليه على أنَّه تاجرٌ في ضائقةٍ مالية، أو

جنديٌّ هاربٌ من نيران الحرب، أو فنانٌ هائمٌ يلفُّه الغموض.

وعدا أمور الزراعة السهلة المؤقتة، منح فينغ تزي تسون لنفسه أوقاتَ فراغٍ كبيرة، وفي هذه الأوقاتِ المُحاطةِ بالوحدة، لم يفارق الكتب، إذ يغلقُ البابَ وينهمكُ في القراءة، أو ترى ظلَّه الوحيدَ يمشي عند ضفةِ النهر، على أنَّ طبعَه غريبَ الأطوار والمتحفظ لم يلقَ احترامَ أهل القرية، بل على العكس زاد من حذرِهم تجاهه.

وبالنسبة لفينغ تزي تسون نفسه، فقد كان حائراً حيال تجربته السابقة، وكأنَّ تلك الذكريات عديمةَ الأهمية قد اختفت فجأةً وراء الزمن من دون أن يجني أيَّ نتائجَ من سعيه وراء الماضي. كان يعرف أنَّ هذه القريةَ ليست مثاليةً فحسب، بل فاقت آماله بدرجةٍ ما؛ كانت ذاتَ مناخٍ لطيف، بعيدةً عن صخب المدينةِ وضجيجها، كما أنَّها منحته في عزلته الصامتة شعوراً بصفاءِ الذهن كصفحةِ مياهٍ ساكنة.

استيقظ فينغ تزي تسون مبكراً صباح ذلك اليوم وذهب إلى النهر. كانت طيورٌ مائيةٌ تسكن قممَ الأشجار تلقي بين حين وآخر بِذَرَقها وريشها، وتصدرُ زقزقةً معدنية، وكانت السماءُ رماديةً معتمة، لم يُنرها الصباح بعد، والقريةُ مستغرقةً في نومٍ عميق، والضبابُ المتصاعدُ من النهرِ يغطِّي كلَّ شيء، وخريرُ المياهِ المتدفقةِ يرنُّ بين الأشجار، وكأنَّه قادمٌ من مكانٍ بعيد.

جلس عند ضفةِ النهر وغمرته رائحةُ الماء المشوبة برائحةِ صمغِ الشجر المنعشة، ولم يشعر برحابةِ الزمنِ وعبثِه فحسب، بل وبغموضِه الماثلِ الهشّ. رأىَ فراشةً تثيرُ حبوبَ اللقاح في جوفِ زهرةِ الهِدْرَانَج المُعتم، وجسمها المنتفخ يتسلق بُصيلات وغصينات الزهرة، وفي الوقت ذاته تنشر جناحيها، بينما الزهرةُ المفعمةُ بالندى تتمايلُ في النسيم.

ظلَّ يتأملُ هذه الفراشةَ الوحيدةَ وقتًا طويلًا، دون أن يعي امتدادَ شعاع الشمسِ الأول في الفضاء.

ارتفعَ رنينُ جرسٍ عذبٌ في القرية، فعرف فينغ تزي تسون أنَّ الصفوفَ قد بدأت في مدرسةِ القريةِ الخاصة.

ظهر أستاذٌ مُسِنّ عند السورِ المنخفض في أوَّلِ القرية، وحجب بيده نورَ الشمس الساطع عن وجهه وتأمَّل محيطَ المكان لفترة، ثم ما لبث أن سار عبر الأحراج في دربٍ معتمٍ يفضي إلى النهر، وثمة صوتُ قراءةٍ مثل ترنيمةٍ يرنُّ خلفه، يهزُّ هواءَ منتصف الظهيرة الثقيل، وينتشرُ بعيداً، باعثاً على النعاس.

كان هذا الأستاذ ذو الملابس الرثَّة يأتي دائماً بعد الدرس إلى كوخه لشرب الشاي. كانا يلعبان الشطرنج أحياناً ويتحدثان في أمورٍ غيرِ ذاتِ أهمية، لكنَّهما في أغلب الوقت يظلّان صامتين، إذ لم يكن فينغ تزي تسون مولعاً بأشخاصٍ مثله، لأنهم دائماً يفسدون ويضلِّلون جيلَ الشبابِ بالتباهي، بينما يقرؤون حول الانصراف عن الحكمة والعقل وغيرهما من هذه المعتقدات القديمة.

وصل الأستاذ إليه وألقى التحيةَ المعتادة، ثم أتبعها بهذا السؤال: "أنتَ تجلسُ وحيداً طوالَ اليوم عند ضفةِ النهر، لا تتأمَّل، ولا تصطاد، فلماذا أتيت إلى هنا؟".

نظر فينغ تزي تسون إليه بازدراءٍ وتذكَّر أنَّ الأستاذ قد سأله عدةَ مرَّاتٍ عن هذا الأمر، لكنَّه لم يرد عليه بإجابةٍ صريحة، بل تحدَّث معه بطريقةٍ استعارية عن مفارقاتِ زينون، وعن كون السهم الطائر عديمَ الحركة، وعن إبقاءِ الذهن كمياهٍ ساكنة.

ـ من أين جئت؟ ولِمَ تعيش إلى جانب هذه المياه الضحلة؟

ـ سمعتُ أنَّ ثمة طائر يعيش في تيان تجو، اسمه "غواي تزاي"، لا يسكن إلاَّ في أشجار الباراسول، ولا يتغذَّى إلاَّ على الكائنات البحرية، ولا يشرب إلاَّ مياه الينابيع العذبة، هل تعرف ذلك؟

ـ غواي تزاي، غواي تزاي... بدا وكأنَّ الأستاذ هبط في ضباب، ولم يتوقف عن حك خديه وأذنيه.

خلفَ الأستاذ، كانت نظراتُ فينغ تزي تسون تتجه بمحاذاةِ رمالِ شاطئ النهر الحمراء المائلة إلى اللون البني والتي تُفضي إلى مدخلِ القرية، حيث تبدو الأحراجُ غيرُ الكثيفة خاويةً هناك، وتمتدُّ أغصان شجرتي الحرير، ويتخلَّلُ صفيرُ الرياح أسيجةَ الشجيرات. كان قد رأى في الأيام السابقة طيفَ امرأةٍ جميلة يظهر بين لحظةٍ وأخرى، تحمل أحياناً دلواً لجلبِ الماءِ من النهر، أو تنشر الملابس على سورٍ مُهدَّم. كان ظهورها يمنحه شعوراً بالغرابةِ والألفةِ في آن، وكلَّما فكَّرَ في قوامها الجميل، شَعرَ بنفسِه تائهاً، وغمَره ارتباكٌ مفاجئ.

أثارت نظراته المعلَّقة انتباه الأستاذ، رغم براعتِه في إخفائها.

ـ هل تنتظر أحداً؟

بدا عليه الارتباك وردَّ قائلاً:

ـ لا، لا.

ـ "إن كان تخميني صحيحاً" قال الأستاذ وهو يرمقه بنظرةٍ لا مبالية، وأكمل بلهجةٍ متهكمة: "فإنَّ الشخص الذي تنتظره لن يظهر اليوم".

ردَّ فينغ تزي تسون متظاهراً بالهدوء:

ـ عفواً ماذا قلت؟

ـ لقد توفيت.

ارتجف قلبه بشدة، وامتقع وجهه، إذ أنَّ هذا الأستاذ اللبق لم يكن أحمق كما تخيَّل، بل كانت قوةُ ملاحظتِه مخيفة، واستطاع أن يحزر ما يفكِّرُ فيه تماماً من دون أن يعي.

أخبره أنَّ ابنةَ قائدِ اللواء مرضت مرضاً شديداً الليلة الماضية وتوفيت بشكلٍ مفاجئ، وأنَّ جنازتها ستُقام بعد ثلاثةِ أيامٍ عند الفجر.

غَربت الشمسُ شيئاً فشيئاً، ووقف فينغ تزي تسون أسفل شجرة التوت الصيني، يفكِّرُ في مصيره الذي عجز عن تبينه، إذ هيأ نفسه مراراً وتكراراً لمختلف النهايات الغريبة، إلَّا الموت، وليس عن ثقته بأنَّه لن يموت، بل لأنَّه نحَّى هذا الاحتمال تماماً.

على أنَّ ما ينذر بالسوء قد وقع قبيل المغرب. كانت هناك عربةٌ يجرها حصانان باهتان رماديان ينخران تقترب من النهر ببطءٍ عبر مدخل الزقاق المظلم، وثمة تابوت أسود يهتز مع حركة العربة مُصدراً قعقعة، واستطاع أن يشمَّ على الفور رائحةَ الطلاء المدهون حديثاً ورائحةَ حبوب اللقاح المنعشة التي تغمرُ الهواء.

أنزل فلاحون التابوت عن العربة ووضعوه في بقعة خالية جوار النهر.

ارتجف جسدُه، هل سيقتلني هؤلاء الناس حقاً؟

ازداد المتفرّجون عددًا، كانت نظراتهم فاترةً ووجوههم جامدة، وإلى جانب البئر وقفتْ شابتان تتضاحكان وتقرصان بعضهما وكأنهما تتحدثان في أمر شيِّق.

نُزِعَت عنه الأصفاد في غمرةِ دُوارِه، وتبع ذلك مروره بسلسلةٍ من الطقوس المعقدةِ والمخيفة: غسيل الوجه، حلاقة الشَّعر، الركوع للأسلاف،

وفي آخر المطاف وضع رجلٌ متوسط العمر ذو وشمٍ كوباً من نبيذِ الأرز وأشار له أن يشربه.

"هل ستقتلونني حقاً؟" سأله فينغ تزي تسون بصوتٍ خفيضٍ وقلبه يحمل شيئاً من الأمل، وبعد أن حصل على ردٍّ بالإيجاب، أحس بأنَّ ثمة خطبًا ما.

إنَّها مزحةٌ مروِّعة، وتظاهرٌ مُتعمَّدٌ قاسٍ، فإن كانوا سيقتلون شخصاً، فكيف سينجح كوبٌ من نبيذِ الأرز في تهدئته؟

لم يمد فينغ تزي تسون يده ويرفع الكوب، بل دفَعَه بحركةٍ من يدِه، وقال بنبرةٍ غريبة: "ما هذا؟ متى أخبرتك أنَّني أريد شرب نبيذِ الأرز؟".

ابتسم الرجل وتجاهله، ثم التفت وأعادَ ملء الكوب بصبرٍ شديد.

باغته الأمر فلم يُتَح له الوقت للتفكير فيه. وإلى حدٍّ ما، لم يكن فينغ تزي تسون خائفاً من الموت، لكنّ منتصفَ الربيع المزهر - حين ينمو العشب وتحلِّقُ الطيور، ويحيا كلّ شيء - جعله يخضع لموته بشجاعة، وفي حالةٍ من الاضطراب الشديد. باغته شعورٌ ساحقٌ بالخوف حين كان جالساً قبل عدةِ أيامٍ في الليل وحيداً يقرأ قصيدة "سي مُطَرَّز" قرب النافذة. وكلّما قرأ هذه القصيدة - التي قرأها مرّات عدّة - لا يتمالك نفسه من البكاء. يعتقد أنَّ هذه القصيدة للشاعر لي شانغ يين تكتنفها حكايةٌ مخيفة، وتحمل بين ثناياها خواءً منيعاً لا يمكن أن يخترقه أحد.

في اللحظة التي أخذ فيها كوب النبيذ من الرجل، لاحت أمامه صورةُ تلك المرأة الجميلة تحمل دلو الماء وتسير ببطءٍ من عند السد الترابي وقطرات الماء تتناثر وتتقافز بجنونٍ تحت نور الشمس، وشجر الحرير يرتجف في النسيم والزهور الناعمة تهبط بسكون.

حُمِل فينغ تزي تسون وهو دائخٌ إلى شاطئ النهر، وفتحت يدان غريبتان ياقةَ قميصه ومسحت عنقه بماءٍ بارد، ثم شاهد خنجراً على شكل سمك المِنوَة يتمايل أمام عينيه، تبعه شعورٌ باردٌ اخترق سريعاً حنجرته ثم قلبه، وسمع في الحال صوتاً مثل جريانِ الماء.

هطل مطرٌ غزيرٌ من السماء المكفهرة فجأةً حين ظهر موكب المشيعين من بين الأحراج عند مدخل القرية، وغلَّفت الريحُ العاصفةُ والأمطارُ السماءَ والأرضَ في لحظةٍ بضبابٍ موحش، واهتزت أغصان الأشجار بشدة وعصفت بها الريحُ الجنوبيةُ جانباً، كاشفةً عن سماءٍ رماديةٍ غائمة.

كان جالساً أمام نافذة كوخه، عندما نثر المطر رذاذَه داخل الغرفة ورطَّب الكتب، وعبْرَ ستار المطر الخفيف أسفل الإفريز، راحت نظراته تمتدُّ بعيداً. المشيعون يتقدمون ببطءٍ عبر الأحراج المعتمة الكثيفة رافعين راياتٍ بيضاء، ويبدون من بعيدٍ كصفوفِ زهورٍ تزحف على طول القمح الربيعي الأخضر القاتم. صقلت مياه المطر التابوتَ الأحمر فبدا كزورقٍ ينزلقُ على صفحةِ ماءِ النهر، وخيل لـ فينغ تزي تسون أنَّه يشمُّ رائحةَ الزهور الورقية الزائفة، الخاملة، كانت ميتةً، باهتةً، عديمةَ الحياة. وفي نهايةِ امتدادِ بصره، ينعطفُ النهرُ الشاسعُ شرقاً، والقصب النضر يتموَّجُ في الماء، وأشجار العسلة تكاد تفقد لونها في ماء المطر بسكون.

تركت ابتسامتُها البشوشة المغناجة أثراً في نفسه في منتصف ظهيرة اليوم الأول الذي رآها إلى جانب النهر، كانت مثل ثمرةٍ ناضجةٍ معلَّقةٍ في جوف الأشجار، لا تني عن إثارةِ انتباهه. وشعرَ أنَّه قد رآها من قبل لكن بعد تفكير لم يتذكَّر أين. عمَّقت أشعةُ شمسِ منتصف الظهيرة من إحساسه بالألفة

وأنَّه قد رآها من قبل، وكان الزمن يتخذ درباً لا يعرفه إلَّا القليلون وينجرف بسكونٍ وكآبة؛ كان متفاوتاً، فوضوياً، ويعيدُ نفسَه في دائرةٍ مغلقة.

كان قد اعتاد على حياةِ العزلةِ الحُرَّة منذ زمن، اعتاد على صرفِ وقتِه يوماً بعد الآخر في القراءةِ الليلية أمام النافذة والتأمل المتبطِّل، واستغرق الأمر طوالَ حياته حتى عثر على طريق العزلة الذي يفضي إلى السكينة، ولكن في عصر يومٍ عادي، هدمت نظراتُ تلك المرأة غير المتوقعة أحلامَه في لمح البصر، وتركته حائراً وتائهاً. كان الزمن يبدو في الظلام كأنما يحيك مؤامرةً ليُضعف ويهزأ قليلاً من حياته التي يراها أقومَ وأفضلَ من حياةِ الآخرين.

زحف ضوء القمر الباهت ببطءٍ على المقابر، وفي تأمله المهيب الصامت، رافقه صوت الساعة المائية الرتيب. المقبرة قريبة، لا يفصلها عنه إلَّا غابات البامبو الكثيفة. كانت زقزقةُ طيورِ القمري متناغمةً في الشجر خارجَ الكوخ، وفينغ تزي تسون يتقلَّبُ متململاً في سريره لا يأتيه النعاس. لم يستطع أن يستعيد السكينةَ المفعمةَ بالوحدة والتحفظ في تلك الليلة الربيعية فحسب، بل أحسَّ بشيءٍ جديدٍ لم يختبره من قبل ينمو في قلبه. وبعد منتصف الليل سمع أحداً ينادي اسمَه عبر النهر، وشعرَ فجأةً أنه تحول إلى شخصين، شخصٍ في الكوخ يحرس الوسادة في جوف الليل بانتظار الفجر، والآخر يقف أسفل نور شمس العصر البرَّاقة في القرية، سارحاً بأفكاره. تبع فينغ تزي تسون الصوت وخرج من الكوخ متمهلاً، وسار عبر أحراج البامبو الرطبة إلى المقبرة.

وفي صباح اليوم التالي حين قيده عدة فلاحين وجاؤوا به كبهيمة إلى

القرية، كان المدرس قد خرج للتو من خلف السياج بعد أن دخل إلى الكوخ، ورأى قدميه تنزفان دماً، فابتسم له فينغ تزي تسون ابتسامةً حزينةً وقال: "لقد جرحتني مساميرُ التابوت".

أُعدِمَ فينغ تزي تسون في اليوم الأول من عيد تشينغ مينغ[13]. وذهب الأستاذ إلى قبره ليلاً حاملاً طيَّةً من الورق الأصفر لحرقِها، ولحسن حظِّه كان قد أمضى برفقته ليلةً لا تنسى في اليوم ذاته العام الماضي. وجعله شرحه الدقيق البارع لقصيدة "سي مُطَرَّز" لا يملك إلَّا أن يشعرَ تجاهه بالاحترام والإجلال، ولم يسعه سوى التفكير في أنه كان عاجزاً عن فهم هذه القصيدة المعروفة من شِعرِ أسرةِ تانغ.

وبينما طلب منه الأستاذ النصح بذلةٍ وخضوع، سأله كذلك بحيرة: "لماذا لم تذهب غرباً إلى تشانغ آن سعياً للشهرةِ والثروةِ طالما أنَّك واسعُ المعرفةِ والاطلاع؟".

لم يجبه فينغ تزي تسون فوراً على سؤاله، بل حكى له بالطريقةِ الرمزيةِ ذاتِها القصةَ التالية.

تِيـه

وصل فينغ تزي تسون بعد رحلةٍ طويلةٍ مضنيةٍ إلى محطةِ بريدٍ تقع في أقصى شمال المدينة القديمة جيانغ نينغ في أوَّلِ يومٍ من الانقلابِ الصيفي، ولم يأخذ بنصيحة أخته ويستريح في محطة البريد المقفرة، بل سرعان ما

(13) عيد تشينغ مينغ: عيد كنس القبور، أو يوم كنس القبور، يقع في اليوم الأوّل من الفصل الشمسي الخامس من التقويم الشمسي القمري الصيني التقليدي. تزور الأسر قبور أسلافها لتنظيف المقابر والدعاء لهم، وأداء طقوس القرابين، التي تشمل عادةً حرق البخور والورق الأصفر.

دخل إلى المدينة في مساء اليوم ذاته.

كانت ضفة النهر حول المدينة خالية، وانتصبت بضع أشجار حور وصفصاف متفرقة في مشهد المغيب، وأثارت الرياح الغربية تراباً أصفرَ باهتاً على أسوار المدينة المتهدمة، بينما حلّقت غربانٌ على ارتفاعٍ منخفضٍ ونعقت نعيقاً موحشاً.

وقف فينغ تزي تسون عند الضفة حاملاً حقيبته وجال بنظره في الأرجاء ولم يرَ إلَّا قفراً. لم يرَ مشهد المدينة الصاخب، فضلاً عن تصوّرِ المناخ المهيب رفيع المستوى للـ شيوتساي[14] والمرشحين للاختبارات الإمبراطورية، على أنَّ مشهد المدينة المتداعي لم يفسد مزاجه الجيد الذي حافظ عليه طويلاً. وكونه طالباً عاش لوقتٍ طويلٍ في البريَّة، وكلَّما تخيل جلوسه للقراءة والدراسة عند النافذة لعشر سنوات، وأنَّ الحلم الذي يسعى إليه منذ زمنٍ على وشك أن يتحقق، لا يتمالك نفسه من الشعور بالحماس والسعادة؛ كان قريباً، يطفو في هواء شهر يونيو الرطب، وكأنَّه في متناول اليد.

وعشيةَ ذهابِه إلى العاصمةِ للامتحان، اتبع فينغ تزي تسون نصيحةَ أختِه بأن يجعل كاهناً طاوياً يقرأ له الطالع، وتنبأ له: "قوائمُ الدينغ مكسورة، وجبةُ طعامِ الأمير تندلقُ عليه"[15]، وبدا أنَّ نذيرَ شؤمٍ ألقى بظلالٍ قاتمةٍ على رحلته إلى العاصمة. وبينما كانت شقيقته قلقةً طوال اليوم، أخبره معلمه بأن يتخلى عن نيته ويأتي للامتحان العام القادم، ولكن فينغ تزي تسون تجاهل نصيحته وردَّ على هذا المعلم الهَرِم رداً حكيماً مدهشاً: "سأركبُ

(14) شيوتساي ـ 秀才: الطالب الذي اجتاز الامتحان الإمبراطوري على مستوى المحافظة في عهد أسرة مينغ وتشينغ.

(15) الدينغ: حامل بأذنين ثلاثي القوائم، يرمز إلى السلطة وبناء الدولة في الصين القديمة.

القاربَ وأتقدم، وسيمَّحِي الشرُّ من تلقاءِ نفسه". ارتبك المعلم وسأله عن الفرق بين القارب والعربة التي يجرها حصان، فرد فينغ تزي تسون رداً غير مألوف:

ـ القاربُ يشقُّ الماء، ولا يمكن اقتفاء أثره.

ظلَّ المعلم صامتاً لمدةٍ طويلة، ووافق أخيراً حين رآه عاقداً العزم.

مثل كثيرٍ من الباحثين الذي يدرسون في عزلة، كان فينغ زي تسون يضع ثقته بأكملها في الكلاسيكيات والكتب، ويرى أنَّ كلَّ المعرفة التي تحملها هذه الدولةُ القديمةُ مكتملةٌ وسامية، إذ لا تجعل المرءَ محيطاً بالحقائق، وفهم الحياة والموت، وإدراك فن العيش فحسب، بل قادراً كذلك على الفرار من الكوارث والأخطار.

حزم فينغ تزي تسون حقيبته على عجل، ودار حول القناة واستأجر قارباً واتجه إلى الشمال. وجعلته الرحلةُ الطويلةُ المضنيةُ ينسى الوقت، لذا بدا المشهد المقفر أمامه حين دخل المدينة خفيةً في عتمةِ الليل كأنَّه حلم، وراوده شكٌّ عمَّا إذا كان قد تخلَّف عن الامتحان بسبب تغيير الطريق المائي.

تبع فينغ تزي تسون أخته الكبيرة حتى وصلا إلى ضفةِ نهر تشينغ هواي، وعلى عكسِ المدينةِ المعتمةِ المقفرة، ترك حوضُ النهر بظلالِ أنواره الطافية أثراً ساحراً في نفسه. كان الهواء يعبق برائحةِ ماكياجٍ منعشة وزكية، والريحُ تهبُّ على صفحةِ الماء، والأضواءُ باهتة؛ والقواربُ الملونةُ تبدو كخيالات.

سار فينغ تزي تسون نحو ساعةٍ بمحاذاةِ النهر، ثم انعطفَ في طريقٍ جبليٍّ ضيق يمتدُّ طويلاً قربَ "صخرةِ السنونو"، وسرعان ما وصل أمام منزلٍ مُظلَّلٍ بالأشجار.

كان المنزل معبداً طاوياً مهيباً، وجَّههما المعلم أن يقضيا الليلة فيه. فتح الباب راهبٌ صبيٌّ لا تزال ملامحه تتسم بالبراءةِ والطفولة، يحمل فانوساً، ونظر إليهما لحظات عبر شِقِّ الباب متأمّلاً الغريبين القادمين في وقتٍ متأخرٍ من الليل وعلى وجهه علاماتُ الحيرة. أخبرهما أنَّ سيد المعبد سافر للتجوال قبل شهرٍ ولم يعد بعد، وأنَّ المعبد الآن بلا سيدٍ ومن غير الملائم استقبال الضيوف. لم يرد فينغ تزي تسون، بل أخرج رسالةً من جيبِه وأعطاها للصبي الذي أخذها وبدون أن يقرأها، فتح لهما البوابة بعد قليلٍ من التفكير.

كان المعبد يقع عند الطرف الجنوبي لجبل تزي جين، ولم يكن مختلفاً عن كلِّ المعابد القديمة ومعابدِ الأسلاف التي اعتاد رؤيتها سوى أنَّه مشيَّدٌ على التلة، ومحاطٌ بغاباتٍ كثيفةٍ يجري فيها جدولُ عذب، وكانت هناك برودةٌ كئيبةٌ تتغلغلُ في الهواء.

خُصِّصَ الجناح الأيسر للمعبد، المتواري بين السحب في السماء الزرقاء، لفينغ تزي تسون وأخته، وهو باحة صغيرة معتمة بها بئرٌ قديمةٌ متهدّمةٌ محفورةٌ في الأرض الحجرية، وإلى جانبها شجرةُ كافورٍ ضخمة، يتدلى جزءٌ من قمتها الكثيفة بثقلٍ على الجدار، وأسفل الشجرة آثارٌ لطحالبَ وذَرقِ طيور.

كان الوقت وبلا أن يشعر أحدٌ يمرُّ سريعاً في هذا البيت الجبلي النائي. وما أن يشقشقَ الفجر، ويشرقَ الصباح وتزقزقَ طيور أشجار الخوخ، يعلنُ فينَغ تزي تسون أنَّه سيدرسُ بجِدٍّ حتى يحل الظلام، وحين يرتفع القمر، يغلق كتبه بسرور.

كان جدارٌ يفصله عن غرفةِ أخته، وفيما عدا اهتمامها بوجباتِ أخيها

الثلاثة، تقوم ببعض أعمال الخياطة في أوقاتِ فراغها، فيما صبيُّ المعبد يطلُّ عليهما مرَّةً أو مرَّتين كلَّ عدةِ أيام، ويحملُ لهما البخورَ والشاي. كانت أخته الكبيرة قد بلغت هذا العام ثمانية وعشرين عاماً، وجعلت وفاة والديها أمر زواجها بعيد المنال. وتملَّكه شيءٌ من الحزن كلَّما فكَّرَ أنَّ طلبه العلمَ قد عطَّل فرصةَ زواجها.

يقتربُ موعدُ الاختبارِ المحلي يوماً بعد الآخر، ومع بداية شهر أغسطس، تفتَّحت الزهور العبقة الجبلية، وملأت رائحتها الحلوة الهواء، وعدَّ فينغ تزي تسون على أصابعه كم مضى على هذه العزلة التأملية التي يقضيها، واكتشف أنَّه قد مضى أكثرُ من شهرٍ أمضاه في نَظم القصائد والدراسة المستمرة، وفيما عدا ليلة أو ليلتين من الأرق، لم يكن ثمة ما يستحق ذِكرُه.

جلس فينغ تزي تسون في تلك الليلة وحيداً كعادته أمام النافذة يقرأ كتاب "عقيدةُ الوسط". كان الطقسُ حاراً إلى درجة غريبة، والأشجار هادئة، والبعوض يطن. نظر بعيداً إلى نهر تشينغ هواي عند قدم الجبل الذي يغمره الضباب، إلى القوارب الملونة الطافية على الماء، وهبَّ نسيمٌ لطيفٌ منعشٌ يفوحُ برائحةِ الماكياج، مسَّ قلبَه واجتاحه شعورٌ بالحزن. ورغم أنَّ هذا المزاج الكئيب كان عابراً، لكنه دفعه إلى الاستغراق في تخيلاتٍ تائهة.

على الطاولة كوبٌ من شاي الياسمين يفوح برائحته القوية جاءت به أخته. كانت تبدو في حالةٍ غريبة، تحوم في الغرفة وكأنَّها تريد أن تقول شيئاً، وقبل أن تغادر، نسيت على الطاولة في غمرة اضطرابها حِليَة يشم ترتديها دائماً. كان حجراً من اليشم على شكل خوخة عروتها مربوطةٌ في جديلةٍ حمراء من اللؤلؤ واليشم. التقطه فينغ تزي تسون وقلَّبه بين أصابعه،

وحينها لاحت أمام عينيه ذكرياتٌ ضبابيةٌ متفرقةٌ من الماضي.

تساقط مطرٌ خفيفٌ متقطعٌ بعد منتصف الليل، وشمَّ على الفور رائحةَ التراب ما إن تساقطت قطرات المطر على أوراق الشجر المتعفنة خارج الغرفة. كان مستلقياً على حصيرةِ السرير الخيزرانية عاجزاً عن النوم في صوتِ المطر.

يتراءى وجه أخته الهادئ بين حينٍ وآخر في ظلام الليلة الماطرة؛ يتحول إلى وجه أمه تارة، وتارةً إلى وجهِ امرأةٍ أخرى. اعتاد فينغ تزي تسون في طفولته أن يذهب إلى مشغل أخته بعد انتهاء الدرس. وفي ذاكرته، كان صعباً عليه في بعض الأحيان أن يفرِّقَ بين أخته وبين العاملات في مشغل التطريز، فابتساماتهن لطيفة، وزينتهن أنيقة، وتفوح منهن رائحةُ الأقمشةِ المطرزةِ والحريريةِ العَطِرَة. بدا وكأنَّ هذه الأقمشة الحريرية ذات الألوان البراقة تحمل حياةً ما، وكان وجيبُ قلبه يخفق كلَّما لمسها. كان مناخ مشغل التطريز الكئيب ماثلاً في نفسه، عاجزاً عن نسيانه، وكأنَّه برعمُ زهرة، وفينغ تزي تسون يحلم دائماً أن يكون خنفساء صغيرة تقبع في جوفها.

نهض من سريره بعد هطول المطر وخرج من غرفته وسار على غير هدى تحت نور القمر، ورأى النور في غرفة أخته مضاءً كالعادة، بدا كالريش في الضباب الخفيف المرتفع. وعكسَ الورقُ المُبطن الأحمر على النافذة ظلَّ أختِه القاتم، فاقترب بهدوء إلى غرفتها وفي يده حِليَةُ اليشم الباردة. كان طوقُ التطريز موضوعاً على ركبتيها، ورأسُها مائلاً ومسنداً على النافذة وبدا أنَّها مستغرقةٌ في النوم. لم يوقظها فينغ تزي تسون، بل اقترب على رؤوس أصَابعه وجلس إلى جانبها وتأملها بهدوء.

تذكّر خريفاً مضى، حين أخذته أخته إلى حقول القطن خلف القرية لقطفه. كانت الحقول شاسعةً ومطبقةَ الصمت، والغيوم البيضاء متراكمةً

في السماء فوق ظلال الشجر، وبدت القرية والأشجار كأنَّما تلاشت. مضى يتجول في الحقول جيئةً وذهاباً ولم يلمح أخته، كان بياض القطن يفيض في كلِّ مكان، وأعلاها يتراخى نور الشمس المفعم بالكآبة الذي تركه لاهثاً، شعرَ أنَّه مثقلٌ بالحزن، ولا سَندَ له يتكئ عليه، وفي النهاية، انحنى على جذعِ شجرةٍ وبكى بصوتٍ خفيض.

انتعش الطقسُ تدريجياً بعد هطول المطر، ولم يمر وقتٌ طويلٌ حتى باغتته رغبةٌ شديدةٌ في النوم.

وسرعان ما أشرق الصباح.

أُجرِيَ الامتحانُ المحلي الذي يُعقَدُ مرَّةً كلَّ ثلاثِ سنواتٍ في أكاديمية "وين تشانغ" للتعليم الكلاسيكي قريباً من خليج "شيوان وو"، وبعد سلسلةٍ من المراسم والإجراءات المعقدة، تبع فينغ تزي تسون عدة مراقبين إلى قاعة الامتحان الضيقة المعتمة المليئة بالطلاب الممتحنين. كان من بين هؤلاء القادمين من مدن وبلدات وقرى هذه المقاطعة العديد من الـ شيوتساي الذي أجروا الامتحان عدة مرات، وعلى نقيض الطلاب الشباب المفعمين بالطموح والرغبة في النجاح، كان هؤلاء المتعجرفون والمغترون بأقدميتهم، بملامحهم الكئيبة، ومظهرهم المنحوس، ملائمين تماماً لجو القاعة الراكد مطبق الصمت.

كان الطقسُ في منتصف الصيف في شهر أغسطس حاراً ورطباً، وصوت حشرة الزيز الضعيف يطن خارج النافذة، والنسيم الحار يندفع على صفحة الماء إلى النوافذ باعثاً على النعاس. عمَّ الصمتُ قاعةَ الامتحان، وانتشرت رائحةُ عرقٍ في الهواء. بدا فينغ تزي تسون شاردَ الذهن في هذا الانتظار

الطويل الممل، إذ لم تمنحه قاعةُ الامتحانِ المهيبةُ الإثارةَ والتشويقَ اللذين طالما تخيلهما، بل على العكس، أحسَّ أنَّ كلَّ شيءٍ هنا عاديٌّ، مضجرٌ، وغيرُ ممتع، وفاض داخله إحساس يتعذَّرُ تفسيره، وكأنَّ السنواتِ العشرَ التي قضاها في الدراسة الشاقة قد ثبتَ في هذه اللحظة أنَّها خطأٌ فادح.

بعد مرور نحو نصف ساعة، وفي صوت تقليب الأوراق، حصل فينغ تزي تسون أخيراً على الورق وعنوان مقاله.

كان موضوع "سي مُطَرَّز" مختلفاً كليَّاً من أيِّ زاويةٍ نظرت منها إلى الأمر. لم يكن يتذكَّرُ أيَّ شيءٍ عن الخلفيةِ التاريخيةِ لأيِّ أشخاصٍ أو أحداثٍ تتعلَّقُ بالسي المُطَرَّزِ فيما عدا معرفته لهذه القصيدةِ المُقفَّاةِ الركيكةِ التي كَتبها لي شانغ يين. قبل عدة أيامٍ صادفَ في مقهى شاي عند نهر تشين هواي بعضَ طلاب الكلية الإمبراطورية المرشحين للامتحان، ولفت انتباهه هؤلاء المطلعون على الأحداث الجارية الذين يتناقشون بفصاحةٍ وتعجرف: كان الإمبراطور وانلي قد قضى أربعةَ عشرَ عاماً في حكمه، والوزيرُ الأكبرُ تجانغ جو جينغ يمسكُ بزمامِ السلطة، وقد مُنحَ الصلاحياتُ الكاملة، وعيَّن تشي جي غوانغ لتدريب جنود البحرية، وتصدى بكفاءةٍ للغزاةِ اليابانيين الذين ارتكبوا جرائم وتخطوا حدود البلاد عند الساحل الجنوبي الشرقي. وأصبحت المحاصيلُ أكثرَ وفرةً في كلِّ مقاطعةٍ في الجنوب بسبب اعتدال المناخ، وأُعيد تعيينُ "خاي روي" الصارمِ المُجدِّ في إصلاحِ القوانين، ووُضِعَت سلسلةٌ من البرامج السياسية وطقوس الانضباط والسلوك قيد الاختبار، وتعافى الشعب بعد تحسين نظام الضرائب... أحسَّ فينغ تزي تسون بشكلٍ ما من نقاشهم أن ازدهار هذه الامبراطورية القديمة سيحدد أسئلةَ الامتحان المحلي الذي سيُجرَى بعد أيام، ولكن، "سي مُطَرَّز"؟

أيُّ سؤالٍ هذا؟ حسب توجيهات الأستاذ لطالما كانت أسئلةُ المقالات في الاختبارات المحلية حول المبادئ السماوية والعلاقات الإنسانية والأركان الثلاثة والمكارم الأزلية الخمس[16]، ولم يكن ثمةَ نَظمٌ للقصائد، وإن كان، فمن الأفضل أن يُقترَحَ كتاب الأغاني وكتاب هان فو، أو قصائد الشاعرين لي باي ودو فو، لكن أي شيءٍ لعينٍ هذا الشاعر لي شانغ يين؟ أَلعلَّ الكونفوشية قد خلت الآن من أيِّ معرفةٍ عملية كما كان المعلم يتحسر ويندب؟ أو كما قالت إحدى البغايا في نهر تشين هواي إنَّ جميعَ الباحثين عفا عليهم الزمن...

فقد فينغ تزي تسون السيطرة على نفسه وخفق قلبه ما إن خطرت بباله تلك العاهرة وابتسامتها المغناجة. ولم يستطع الآن أن يتذكَّرَ بوضوحٍ كيف وصل إلى نهر تشين هواي. كانت تظهر صورتها أمامه وهي تبتسم وتهز ردفيها. سار وراءها بمحاذاة السد النهري إلى قاربٍ ملون، وأُصابته رائحة الماكياج بالدُوَار. وخُيِّلَ له أنَّ النهرَ بأكمله مغمورٌ في روائحِ العطور. كان قلبه يخفق بشدة، وكلَّما حاول أن يكبته، اخترقت تلك الإثارةُ المُسكِرةُ بشرتَه بعمقٍ وتغلغلت في دمه؛ استلقى فينغ تزي تسون على حصيرةٍ من الخيزران داخل مقصورة المركب المعتمة الرطبة وأخذ كوبَ الشاي الذي قدمته له تلك المرأة. كان مُثاراً لدرجةِ أن ذراعيه ترتجفان، ابتسمتْ له، وسقطت ملابسُها كالرماد.

كانت الأحاسيسُ والتخيلاتُ التي اجتاحته في فترة العصرِ القصيرةِ تلك مختلفةً تماماً. غمرته مياهُ النهر العذبة، لكنَّها كانت عابرة،

(16) الأركان الثلاثة: سلطة الملك على الرعية، سلطة الأب على الابن، سلطة الزوج على زوجة. والمكارم الأزلية الخمس: البر، الاستقامة، الأدب، الحكمة والإخلاص.

متملِّصَة. جلس فينغ تزي تسون عند المغيب مع المرأة في مقدمة المركب أمام الكثير من الصواري ومَقْصُوراتِ المراكب، وتأمل أسرابَ اليعاسيب المحلِّقة بخفَّتها، وغمرته سريعاً دفقةُ كآبةٍ لا توصف. لمسَ فينغ تزي تسون قطعةَ اليشمِ في جيبه وأعطاها للمرأة؛ حجرٌ مدوَّرٌ من اليشمِ على شكلِ خوخة، مخمليُّ اللون، مربوطٌ في جديلةٍ حمراءَ من اللؤلؤ واليشم، كان من متعلقاتِ أختِه الشخصية، ونسيته على طاولته في ليلةٍ حارةٍ عندما جاءت لتصبَّ له الشاي، وتذكَّرَ أنَّه كان يقبضُ على قطعة اليشم بيده ويلمسُه بخفةٍ في السقيفةِ منذ قليل، ولهاثُ المرأةِ يملأ أذنيه. كان بارداً مثل قطعةِ حرير، يكتنفه سرٌ غامض. وظهر أمام عينيه مراراً وجهُ أختِه الغاضبُ المبللُ بالدموع ونشيجها وهي تقول: "كلَّما تعلَّمت ازدَدْتُ غباءً". كانت البوابةُ موصدةً حين عاد فينغ تزي تسون ذلك المساء إلى المعبد، بدا وكأنَّ أخته تستحمُ في الفناء، وعلا صوتُ رذاذِ ماءٍ من الداخل. وقف أمام البوابة لبعض الوقت، ثم غادر بخيبةِ أمل.

صبَّ له صبيٌّ خادمٌ كوباً من شاي زهور الأقحوان بينما كان شاخصاً ببصره خارج النافذة. كان الصمت يعم قاعة الامتحان، لا يُسمَعُ إلَّا حفيف الأوراق وتناثر الحبر. كان ذهنه خاوياً، وكأنَّ ديداناً التهمت أعصابه، وشعرَ في تلك اللحظة بأنه في كهفٍ عميقٍ يلفُّه الظلام ولا يرى نوراً، بالضبط مثلما حبسته أخته في مستودعٍ معتمٍ في طفولته؛ جلس يقرأ "محاورات كونفوشيوس" وينظر بقلقٍ عبر شِقِّ الباب إلى الخارج، إلى أخته تقف على سُلَّمٍ خشبيٍّ وتقطف العنب من أسفل الإفريز، وإلى بتلات زهور شجرة صفيراء اليابان، وقمم الشجر المغمورة بنور الشمس.

كانت ورقته لا تزال فارغةً قبيل انتهاء الامتحان، فأمسك القلم بذهنٍ

شارد، وكتب سطْرَي شِعر، كانا آخر مقطعين في قصيدةِ "سي مُطَرَّز":

شعوري، سيصبح مجرّد ذكرى
حينها، كنتُ ضائعاً وحائراً

عاد فينغ تزي تسون من أكاديمية وين تشانغ إلى المنزل الجبلي بعد ثلاثةِ أيام. انتظرته أخته طويلاً أسفل الإفريز خارج المعبد، واعتصر الألمُ قلبَها ما أن رأت هيئتَه المُغتمَّة. ولمّا كانت امرأةً مؤمنةً بقضاء السماء، فقد بعث تكهنُ الراهبِ الطاوي بنذيرِ الشؤمِ القلقَ في نفسِها، لذا تنكَّرت في زي رجل، غيرُ عابئةٍ بالرفض القاطع لأخيها والمعلم، وسافرت مع أخيها إلى جيانغ نينغ.

وخلال إقامتها في المعبد لما يزيد عن شهر، كانت أكثرَ قلقاً، تقضي لياليها ساهرة، ورغم يقظتها وحذرها في أداءِ كلِّ شيء، فقد وقعت أحداثٌ مشؤومةٌ في هذا المعبدِ الجبلي النائي: استيقظت في إحدى الليالي على صوتِ دوي الرعد لتكتشف أنَّ أخاها نائمٌ في غرفتها، وتلا ذلك اختفاءُ حِلية اليشم، وكانت من متعلّقاتِ والدتِها، وقد مرَّت عليها أوقاتٌ تتأملُ فيها هذه الحِليةَ المصقولةَ على شكلِ خوخة، وتتضرعُ بصمتٍ آملةً أن تدرأ عنهما الكوارث، وتنجيهما من المصائب. ولاحظت قبل الامتحان بعدةِ أيامٍ أنَّ نظراته مراوغة ومزاجه مُغتم، وكأنَّ ثمةَ سرٌّ يثقلُ قلبه، وأنَّه يقرأ كتبَ الشِّعرِ بلا حماس، كما فقد شهيته للطعام والشراب. على أنَّ ذهابهما إلى المدينةِ هذه المرة كان يسيراً، فرغم أنَّها رأت نتيجةَ الامتحان من علاماتِ الذعرِ الباديةِ على وجهِ أخيها، لم يقع ما تنبأ به الراهبُ الطاوي.

جلس الاثنان مساء ذلك اليوم لتنسِّم الهواء تحت شجرة الكافور في الفناء، كلٌّ منهما ينظر إلى الآخر في صمت. حزمت أخته الحقائب قبل

ذلك وشكرت خادم المعبد والصبي، استعداداً لأن يرحلا في اليوم التالي من جيانغ نينغ إلى القريةِ بالمركب.

لم تبذل هذه المرأةُ الحكيمةُ جهداً كبيراً في مواساة أخيها، إذ كانت قلقةً أن تزيد مواساتُها من قلقِه وكآبتِه. وفي منتصف الليل حين ارتفع القمرُ في السماء، قصَّت عليه حكايةً غريبةً سمعتها من منزل تاجر شاي قرب نهر تشين هواي.

أغمض فينغ تزي تسون عينيه، وشعرَ بدفقةِ برودةٍ تسري في جسدِه رغم حرارةِ الصيف اللاهبة، وكانت أخته تحكي القصة بينما تفكيره منصرفٌ إلى أمرٍ آخر. وفي نور القمر الأزرق أعلى قمم الأشجار، عبرت نظراته أسيجةَ الشجيراتِ وأسوارَ المدينة المهدمة أسفل التلة إلى الضوء الأحمر القاتم المنعكس على أمواج نهر تشين هواي. علا حفيف الصنوبر، وانتشرت رائحة أشجار العَبَقة، وأحسَّ فينغ تزي تسون أنَّه يقبعُ خارجَ الزمن.

كانت أخته منهكةً ولم تصل إلى نهايةِ القصة واستغرقت في النوم. وحين استيقظت في اليوم التالي وجدت أخاها قد شنقَ نفسه في شجرةِ الكافورِ الضخمة.

حكايةُ تاجرِ الشاي

استيقظ فينغ تزي تسون تقريباً في منتصف الليل مصاباً بالدُّوارِ على فراشِ مرضه. كان الوقتُ يمرُّ ببطءٍ شديدٍ وكأنَّه زنبرك مشدودٌ فقدَ مرونته. كان نَورُ القمرِ الباهت يتراخى على زاويةِ النافذة، والفناءُ خالياً، وظلالُ الجدران الرمادية تتداخل في الأحراج مثل حماماتٍ سودٍ جاثمةٍ في ستارِ الليل.

كان في أواخر الربيع في شهر مايو، وإن سار كلُّ شيءٍ على ما يرام، فالعربةُ المحملةُ بالشاي التي أرسلها إلى جنوب اليانغستي ستكون قد وصلت إلى تونغ تجو ووان تشينغ، ثم ستُشحنُ بيسرٍ خلالَ شهرٍ إلى العاصمةِ وتشانغ آن، لتمرَّ أخيراً عبر ممر قانسو القديم وغرب تشين تشوان وتصل إلى بلاد فارس والهند وأراضٍ نائية. وبالطبع حين تعود قافلتُه إلى العاصمة في أواخر الخريف، ستكونُ محمَّلةً بالسجادِ الفارسي، وأحجارِ المالاكيت من أراضٍ نائية، والقلاداتِ التركيةِ والأوعيةِ الذهبيةِ من الهند.

أحسَّ حين فكَّرَ في ذلك بأنَّ جسدَه طفا خارجَ سريرِ مرضه، خارجَ هذه الباحةِ الموحشةِ في تشانغ آن، وفي طريقه إلى الأراضي الغربية.

عاش فينغ تزي تسون حياته مُرتحلاً، هكذا أَلِفَ تلك الدروبَ المظلمة، مثلما يألفُ خطوطَ راحةِ يده الدقيقة. يكون جنوبُ اليانغستي في مارس الربيعي ماطراً، والطرقُ موحلة، وقناةُ نهر "هوانغ شوي[17]" القديمةُ أسفل جبال تشي ليان جرداءَ شاسعة، تحوم فيها الذئابُ البرية.

وبوسع فينغ تزي تسون أن يشمَّ الآن الرائحةَ العطرةَ اللاذعةَ التي تفوحُ من أوراقِ الشاي، وبدرجةٍ ما، كانت هذه الرائحةَ الوحيدةَ التي يألفها؛ تفوحُ من كلِّ زاويةٍ من زوايا هذا المنزل الكبير، تفوحُ من النحل الراقص والفراشات المحلِّقة من مدينة قو سو، ومن أعماق صحراء جوبي حيث تهبُّ الرياح وتتطايرُ الرمال. كان يحبُّ هذه الرائحة التي تقتفي آثارَ قوافلِ التجار، وتنتشرُ في الأرجاء لتمنحه الصِّيتَ والغنى والسكينةَ يوماً بعد يوم.

كان فينغ تزي تسون مستلقياً في فراشه الوثير عاجزاً عن النوم في عذابِ

(17) رافد أساسي من الروافد العليا للنهر الأصفر.

مرضه، مدركاً أنْ ليس بوسعه القيام بشيءٍ في هذه اللحظة سوى انتظارِ الفجر، وانتظارِ أن يظهر الطبيبُ خارجَ النافذة، ويأتي إلى سريره ويحقنه بدواءٍ مسكّنٍ صُنِعَ من بذور الخشخاش المطحونة. لم يعد يتذكّر منذ متى بدأ يصيبه سوءُ الطالع. ربما في ذلك الصيف قبل عشرين عاماً، بدأ نذيرُ الشؤم يتكشَّفُ بهدوء. كان يقضي تلك الليلة في اصطبلٍ للخيل قريبٍ من مقاطعة جولوك في التبت، واستيقظ في الصباح التالي ليكتشفَ أنَّ وجهه مغطًّى بالروث. ليس بوسع الناس توقع متى سينقلب حظهم، ومهما درست الأمرَ ملياً، سواء كنتَ ابنَ امبراطورٍ أم شحاذاً، فسيدركك البلاءُ مثل عَلَقةٍ تلتصقُ بجسدك ولن تستطيع التخلص منها.

يومَ الرابع والعشرين من الشهر الثاني عشر، من التقويم القمري، العامَ الماضي، وصلت تجارةُ فينغ تزي تسون إلى أوجِ ازدهارها. جلس ذاك اليوم كعادته وحيداً في غرفة المكتب يتفحص ويراجع حسابات نهاية العام؛ كان قد افتتح خلال السنوات الماضية عشرين مشغلاً للنسيج، وثلاثةَ عشرَ متجراً للأقمشة، وصيدليتين ومحلاً للرهونات، وتصل دفاتر الحسابات تباعاً إلى مكتبه مع حلول نهاية العام. دخلت زوجته السابعة وقت الظهيرة إلى حجرة المكتب من دون أن تطرق الباب وأفزعته، وأخبرته بوجهٍ يعلوه الذعر برسالةٍ من الخادم مفادها أنَّ موكبَ خيلٍ من البلاطِ الإمبراطوري يتجه إلى منزله، وأنَّه اجتاز بوابةَ القصرِ الغربيةِ الآن. ارتجف فينغ تزي تسون لدى سماعه الخبر، لماذا موكبُ البلاطِ الإمبراطوري قادمٌ إلى منزله؟ هلَ من المحتمل أنَّ الإمبراطورَ اكتشف ما يقوم به من حِيَلٍ في الضرائبِ الرسمية؟

لم يكن لديه الوقت الكافي للتفكير، وعَبَرَ مهموماً رواقاً تلوَ الآخر،

إلى أن وصل إلى الخارج محبطاً. وبعد مراسمَ رسميةٍ مخيفة، ثنى فينغ تزي تسون كُمَّيه[18] وتلقى المرسومَ الإمبراطوري، لم يسمع محتوى المرسوم لفرطِ قلقه، وأُخبِرَ وسطَ جلبةِ وصخبِ التهاني أنَّ جلالةَ الإمبراطور يدعوه لمشاهدةِ عرضٍ مسرحيٍّ في القصر مساءَ غد.

ظلَّ فينغ تزي تسون جاثماً على الأرض لفترةٍ طويلة، وإلى أن غادر الموكب وسط العاصفة الثلجية واختفى، كان لا يزالُ راكعاً أمام القاعة. ولم يتمالك نفسه من الشعور بالسعادة والحزن في آن، كان الأمر مثل حلم، أن يدخل قصر الإمبراطور وهو الذي عاش حياته مرتحلاً شحاذاً. كانت الدموع تملأ وجهه حين جاء الخدم ليرفعوه عن الأرض.

كان الثلج يهطل، وصفير الريح الشمالية يهب منخفضاً بمحاذاة إفريز المنزل، ويضرب أغصان الأشجار الجافة، ونار المدفأة تتوهج باعثةً الدفء داخل المنزل. وقف فينغ تزي تسون أمام القاعة الرئيسة في حالٍ من التيه، وجاءت زوجته بوجهٍ يفيض دلالاً ووقفت إلى جانبه في صمت، وباغتته رائحةُ عطرةُ غريبةُ تفوحُ من جسدها، ثم تذكَّر أنه لم يزرها في غرفةِ نومها منذ وقتٍ طويلٍ بسبب انشغاله الأيام الماضية في مراجعةِ الحسابات. وحين أخذها فينغ تزي تسون باندفاعٍ وعُجالةٍ إلى الغرفة، كانت تلك المرأة الجميلة تلهث بنعومةٍ ووجهها يتضرَّجُ بالدم. كانت تعلم طبيعةَ زوجها، وتعلم الطريقةَ التي يشاركها فرحته كلَّما كان هناك خبرٌ سعيد، ورغم أنَّها تفضل الاستمتاع بهذه اللحظة الجميلة برَوِيَّة في المساء، لكن زوجها كان قد فقد صبره، وبدا مثل طفلٍ أخرقٍ جِلف.

(18) ثَنيُ الأكمام تعبيرٌ عن الاحترام.

لم يعلم بالطبع أنَّها المرَّةُ الأخيرةُ التي سيحظى فيها بنشوةِ السرير. شعرَ بدُوارٍ خفيفٍ حين استيقظ بعد الظهيرة، وأصابه غثيانٌ عند تناول الطعام وتقيأ، لكنه لم يعطِ هذا التعبَ البسيطَ انتباهاً كافياً، فلعب مع زوجته دور ماجيانغ كعادتهما، ثم ذهب إلى غرفةِ مدبِّرِ المنزل ليتناقشا حول الهديةِ المناسبةِ التي سيقدمها إلى جلالةِ الإمبراطور في اليوم التالي.

ثم أصابته حمَّى مفاجئةٌ مع حلول منتصف الليل، ولم يمر وقتٌ قصيرٌ حتى شعرَ بدُوارٍ شديدٍ وصداعٍ يشقُّ دماغه، وبعث ذلك في نفسِه القلق، فلم يكن من اللائق أن يذهب في اليوم التالي إلى القصر بسعالٍ ومخاطٍ ومن دون أن تتراجع الحمى. ورأى في نور المصباح الخافت مدبرَ المنزل وبعضَ الخدم يقفون عند سريره ويحدِّقون إليه بخوف، وبدت زوجته مثقلةً بالهم، وظهر الرعبُ على وجهِها.

استيقظ فينغ تزي تسون بعد منتصف الليل من هذيان أحلامه المحمومة، ورأى عبر النافذة الحوذيَّ يشدُّ الحصانَ بالطوق في الباحة ونور فانوس العربة يضيء الثلج المتساقط وبعض الأشجار المتناثرة. صهل الحصان ودقَّ الأرضَ الثلجية. ربما كانوا ذاهبين إلى المدينة لاستدعاء الطبيب، وأحسَّ أنَّه مصابٌ بمرضٍ خطير. كان الحوذي يرتدي معطفاً من سعف النخل، شدَّ اللجام وقعقعت العربة على الأرض المتجمدة وغادرت الباحة.

كان عاجزاً عن تحديد ما إذا كان يحلم، بدا أنَّ هذا المشهد تكرَّرَ عدةً مرَّاتٍ من قبل. فاضت ذاكرتُه دفعةً واحدةً بذكرياتِ الماضي. لم يرَ وجهَ زوجته بوضوح، بدا ضبابياً في نور المصباح، وكأنَّه يُرَى عبر مُنخل الشباك. كان يستلقي دائخاً في سريره، بوسعه أن يشعرَ بتعاقب الليل

والنهار الغامض، بوسعه أن يشعرَ بهؤلاء القادمين لزيارته كفانوسٍ مزخرفٍ دَوَّار، كانوا يتحدثون بصوتٍ خفيضٍ لا يُسمَعُ بوضوح، وأدرك أنَّه فوَّتَ رؤيةَ الإمبراطور بسبب مرضه المفاجئ.

أشرق الصباح أخيراً، تراخت أشعة الشمس الدافئة على سريره، فتنفس فينغ تزي تسون الصعداء، أحس أنَّه تخلص من قيود الظلام مرَّةً أخرى وعاد من جديد إلى الواقع، كان هكذا تواقاً لأشعةِ الشمس، تواقاً لدفئها ودعمها القوي. يأتي أبناؤه ما أن يطلع الصباح واحداً تلو الآخر خلال تلك الأيام التي قضاها في سريره لزيارته، وتأديةِ طقسٍ رآه غيرَ ضروري. كانوا صامتين، يحدِّقون إليه بذهولٍ حابسين أنفاسهم، وكأنَّ كل شيءٍ في هذه الغرفة المعتمة يتعفَّن، وتفوح منه رائحةٌ تصيبهم بالقرف. كان يعلم أنَّ ابنه الكبير سيذهب كعادته بعد انتهاء هذا الطقس الزائف إلى الغابات الجبلية شمال المدينة للصيد، وأنَّ ابنته الثانية تصبغ وجهها بمساحيق ثقيلة لأنَّها تقضي وقتها يومياً في مسرح العاصمة، وكان ابنُه السابعُ آخرَ القادمين وأوَّلَ المغادرين، ويبدو من هيئته المتعجلة كما لو أنَّه أخطأ غرفةً ودخلها بغير قصد. لم يجبر هؤلاء الواقفين إلى جانب سريره كما التماثيل أنفسهم حتى على إلقاء التحية، لم يكن مجيئُهم إلَّا عادةً أو بداعي آدابِ سلوكٍ عتيقةٍ رسَّختها هذه الدولةُ الموغلةُ في القِدم. كانوا يقفون بصمتٍ ويتبادلون النظرات، وكلٌّ منهم يفكِّرُ في أموره. لكن هذا الطقس الزائف راح يبلو بمرور الوقت، وكان عدد الأشخاص الذي يأتون لزيارته والاطمئنان على حاله بعد الوجبات يقلُّ شيئاً فشيئاً، ولم يمر شهرٌ حتى قلَّ عددهم إلى النصف، وفي النهايةِ لم يبقَ إلى جانبه سوى شخصٍ واحد، هو ابنتُه الصغيرةُ

المفضلة، لكنَّها ظهرت أمام نافذته صباح اليوم ولم تدخل الغرفة، بل قالت له شيئاً عبر الستارة، وغادرت بسرعة.

دخلت زوجته إلى الغرفة عند الظهيرة وراء طبيب. وبينما كان يقيسُ نبضه، طوت الستارةَ السميكةَ ليتدفقَ الهواءُ المنعشُ إلى الداخل، ثم جلست بعد ذلك على كرسي خشبي عند الطاولة ونظرت إليه في صمت. لم يلمح فينغ تزي تسون أيَّ عاطفةٍ من نظراتها، لا حزناً ولا فرحاً (إلا إذا كان السبب أنَّها تخفي سعادتها ببراعة). بدت كالسابق، جالسةً إلى الطاولة تعبثُ في أظافرِها برفق.

قاس الطبيبُ نبضه، وقلبَ جفنيه متفحصاً، ودقَّ على صدره عدةَ مرَّات، ثم هزَّ رأسه مصطنعاً الجدية.

ـ علامَ يهزُّ رأسه؟

كان فينغ تزي تسون يضمرُ كراهيةً شديدةً لهذا الطبيب منذ أن وطأ غرفته للمرةِ الأولى، إذ يُضمرُ نوعاً من الشماتةِ في الناس لغايةٍ في نفسه، واعتداداً بالنفس في هيئةِ تظاهرٍ بالإشفاقِ، مستترةٍ في تحفظه ولا مبالاته وكلامه اللائق، وكان يتنهدُ دائماً ويهزُّ رأسه وكأنَّه يواجه مشكلةً عويصة. فَرَدَ الطبيب في تلك اللحظة ورقةً على الطاولة ولعق طرفَ ريشته وبدأ في كتابةِ وصفةٍ طبية وهمس لزوجته بشيءٍ ما، وكان فينغ تزي تسون قادراً على فهم ما يجري من سلوكهما، رغم أنَّه لم يتمكن من سماع ما يقولانه بوضوحٍ. كان وجه زوجته مضرجاً بالدم، تفيض ابتسامتها التي تكتمها من بين وجنتيها. هل كان وجهها متورداً لأنَّ كلامَ الطبيبِ أخجلها، أم هو انعكاسُ لونِ الستائرِ الأحمرِ القرمزي؟

انتهى الطبيب من كتابة الوصفة وخرج، ثم شدَّت زوجته زوايا اللحاف

وغطَّته، وخرجت. بدت شاردةَ الذهن وكأنَّ ثمة شيءً آخرُ يشغلُ بالها، وتعثَّرت بقوة في عتبةِ الباب أثناء خروجها.

قُدِّرَ لفينغ تزي تسون مواجهةُ الوحدةِ والعذابِ بمفرده حين اختفى ظلُّ زوجته في نورِ الشمس. هبَّت على وجهه رياح شهر مايو المشبَّعة برائحة صمغ الأشجار المنعشة. أعلى تلال جنوب اليانغستي البعيدة حيث موسمُ إزهار أشجار الخوخ، وموسمُ الرائحة الحلوة للبرقوق اليانع الناضج، وفي منطقة الحدود الشمالية الغربية عند نهر هوانغ شوي، كانت مياهُ النهرِ لا تزالُ مُجمَّدة، والثلجُ يتساقط. كان ثمة دروبٌ معتمةٌ ومجهولةٌ في ذاكرته تلوحُ أمام عينيه، وكأنَّ بوسعه أن يرى تلك الأحصنةَ الراكضة، تطلقُ العنانَ لحوافرها وتعبرُ الحظائرَ وأكوامَ التبن، تعبرُ قبابَ المساجدِ والمعابدِ اللامية المذهبة، وتختفي خلف جموع الحجاج، ويرى فيما بعد الذهبَ والفضةَ وأحجارَ اليشم تتساقط بغزارة كمياهٍ جارية وتهوي ببطءٍ على رأسه حتى أوشك أن يختنق.

كانت هناك دميةٌ متحركةٌ موضوعة على الخزانة إلى جانب السرير اشتراها من تاجرٍ نيبالي، تُحرِّك رأسها المسطح تبعاً لصوت إيقاعها المتواتر الناتج عن دورانها، وتكشفُ عن ابتسامةٍ بين حينٍ وآخر، وإلى جانبها إناءُ زهورٍ به باقةُ أقحوان ذوت منذ مدةٍ طويلة، امتصَّت بتلاتُها الماء كلّه، وفاحت منها رائحةٌ كالغبار.

نحو الظهيرة تهادى صوتُ ضحكاتِ زوجته من غرفة الجلوس المجاورة مزعزعاً سكونَ الهواءِ المُطبِق، وظلَّ يُرجِّعُ صداه في نور الشمس الساكن ماثلاً لا يتلاشى. رفع فينغ تزي تسون ذراعه بوهنٍ وبحث لبعض الوقت عن كتابٍ أسفل المخدة. كان ديوانَ شعر مطبوع على الخشب يتضمن القصيدةَ

الشهيرة "سي مُطَرَّز" والتي لم يقرأُها إلَّا وانهمرت دموعه. وكان قد قرأها مرَّاتٍ عدّة، وكأنَّ كلَّ كلمةٍ كُتِبَت لأجله، في تلك القصيدة المفعمة بالكآبة التي كتبها لي شانغ يين في سن الخمسين. ورغم أنَّ معرفته لا تكفي لتأويل معنى القصيدة المعقَّد، لكنَّها في رأيه تحملُ أسرارِ هذا الكون جميعها. وبدا جلياً أنَّه ولي شانغ يين متشابهان؛ مستغرقاً في نمطيةِ وتكرارِ الزمن، عاجزاً عن تحرير نفسه، والشيءُ الوحيدُ الذي بمقدوره أن يفعله هو الجلوس وحيداً في غرفة عزفِ الآلات الوترية واسترجاع ذكريات الماضي.

خمسون وتراً أبدياً لـ سي المُطَرَّز

ـ لماذا تقول "أبدياً"؟

لم يعلم كمَ مرَّ من الوقت حين دخلت خادمةٌ إلى غرفته وفي يدها خِرقةٌ وبدأت تمسح الطاولةَ والكراسي وتنظر إلى الخارج بين حينٍ وآخر.

ـ إلامَ تنظرين؟

ـ إلى عربةٍ يا سيدي.

ـ ما هذا الصوتُ في الخارج؟

رمقته بنظرةٍ ثم قالت: "إنَّهم يُنزلون شيئاً ما من العربة".

سمع فينغ تزي تسون وقع حوافر الحصان على الأرض الموحلة، وكانت ثمة ظلالٌ رماديةٌ لخدمٍ يعبرون أمام النافذة بين حينٍ وآخر في تلصُّصٍ ظاهر وكأنَّهم يخفون عنه أمراً ما. كانت الأشجارُ تصدرُ حفيفاً، ونسيمُ المساءِ يحركُ ستارةَ النافذة حاملاً رائحةَ طلاء.

تملَّك الذعرُ فينغ تزي تسون.

ـ اذهبي وألقي نظرةً على ما يُنزلونه من العربة.

أومأت الخادمة برأسها وتركت الخِرقة، ورفعت ستارَ الباب وخرجت، ثم عادت بعد قليل وهي تنظر إليه بتردد.

ـ هل وصلت شحنةُ الشاي؟

ـ لا، إنَّه تابوت.

ـ ماذا؟

أظلم قلبه فجأة، وكاد ألَّا يصدق كلامَ الخادمة. هل سأموت حقاً هذه المرة؟ حين خطر بباله ذلك أجهشَ بالبكاءِ وذرفَ دموعاً حارة.

لا شيء يمكن تغييره. كان الانجراف السريع للزمن يتقدم إلى الأمام ويتركه مُستبعداً وبعيداً في الخلف. ينبغي أن يفكِّرَ جيداً في الموت الآن. وشعر أن حياته كانت تتهيأ بهدوءٍ لتلك اللحظة، فدُنوُّ الموت يعني أنَّ كلَّ شيءٍ سيُمحَى مرَّةً واحدةً وإلى الأبد، أما الأمل فيأتي دائماً متأخراً، يتركُ المرءَ منتظراً إلى أن يشيب شعره، ويقعُ البلاءُ عنيداً وعنيفاً ومباغتاً. ومنذ اللحظةِ الأولى التي استلقى فيها فينغ تزي تسون في فراشِ مرضه، كان القَدَرُ المخيفُ قد حطَّمَ أحلامه بمنهجيةٍ تبعاً لقوانينه، عمِلَ على إخضاعِه جسدياً ونفسياً، ولم يمنحه فرصةً لالتقاط أنفاسه، وتركه في النهايةِ هزيلاً، توشك أنفاسه على الزوال. كان خبثه، ومكره، ووحشيته وتأنيه الشديد مرتباً مسبقاً. انصرف تفكيره في الأمر بشيءٍ من الغضب ورأى أنَّه مثل مسرحيةٍ متقنة، محكمةٍ، صارمةٍ، خاليةٍ من الأخطاء:

1 ـ السنة الماضية، في اليوم الرابع والعشرين من الشهر الثاني عشر في التقويم القمري جاء الحرس الإمبراطوري إلى منزل فينغ تزي تسون. كان يوماً هبَّت فيه الرياح وهطل فيه الثلج، وأخطروه بدعوةِ جلالته لزيارته. أجهشَ بالبكاءِ لفرطِ حماسه، وشَعرَ بشيءٍ من الغم وعدم السرور في آن،

وحسب خبرته، يختبئُ خلف السعادةِ القصوى دائماً خطرٌ محتمل.

2ـ نُحِّيَت الهواجسُ مؤقتاً عند قضائه وقتاً لا يُنسى في غرفةِ نومِ زوجته.

3 ـ استيقظ بعد الظهيرةِ وشَعرَ بقليلٍ من التعب، وهذا يعني أنَّ الأنفَ المزكومة، والعطس بين حينٍ وآخر لا يعني أيَّ مشكلة.

4ـ التقيؤ. لَعبَ مع زوجته عدةَ أدوار ماجيانغ، ثم ذهب إلى غرفةِ مدبر المنزل ليتناقشا حول ترتيبات اليوم التالي عند ذهابه إلى قصرِ الإمبراطور، وقد راودته الهواجسُ من جديد لكنَّها تلاشت على الفور.

5ـ ظَهرَ الطبيب لأوّلِ مرَّةٍ في صباح اليوم الثاني، وقد طمأنه هذا الدجالُ الغبي: ستكونُ الأمورُ على ما يُرام، لأنَّ حرارتَه ستتراجعُ قبل الظهيرة ولن تتجاوز المساءَ على أقصى تقدير.

6 ـ فوَّتَ فينغ تزي تسون مقابلةَ الإمبراطور بسبب حالةِ شبهِ الغيبوبةِ التي كان فيها.

7 ـ شُخِّصَ مرضُه بالحمَّى التيفودية، واضطر أن يرضى بالحل الثاني، آملاً أن يتعافى قبل بدايةِ شهر مارس، وهكذا يمكنه أن يذهب برفقةِ القوافل إلى الجنوب مرَّةً أخرى.

8ـ منتصف شهر إبريل. اقترحَ المحاولةَ مع طبيبٍ آخر، وبدا جلياً أنَّه سئم ونفد صبره، وأحسَّ للمرَّةِ الأولى بخطورةِ الأمر، ربما...

9ـ سيطرت عليه الهواجسُ تماماً، كان خائفاً ولكن لديه بصيصُ أمل.

10 ـ قبل ساعة. سمع صوت وصول العربة إلى الفناء، وخطر له أنَّ القافلةَ التي أرسلها إلى جنوب اليانغستي ربما وصلت إلى العاصمةِ قبل موعدها، لكنَّ الخادمةَ قالت له إنَّ العربةَ جاءت محمَّلة بتابوت.

صدق حدسُه، لكن مع ذلك كان يعوزه الاستعداد الكافي،

فضغط وجهه بقوةٍ إلى الحائط البارد مواجهاً الدميةَ الموضوعة إلى جانب السرير وقال محدثاً نفسَه كطفل:

ـ لا تتركوني أموت، دعوني أكُن شحاذاً كما كنتُ في الماضي، دعوني أكُن كلباً يهيمُ في الأرجاء ويتسوَّلُ في الطرقات...

بعد مرور أكثر من أسبوعين، استيقظ فينغ تزي تسون من سباته ذاتَ مساء، غيرَ مدركٍ بأنَّ حياتَه قد وصلت إلى نهايتها، وأرسل في طلب زوجته مبتهجاً ليحكي لها عن حلمٍ غريبٍ حَلُمَ به للتو، لكنّ الوقتَ لم يسعفه ليسردَ الحلمَ كاملاً وأسلمَ روحَه في سلام.

حُلْمٌ داخلَ حُلْم

في الليلةِ التي حشدَ فيها إمبراطور مملكة تشو "وو دا تشيو" عشرات الآلاف عابراً البحرَ تحت قبةِ النجومِ والسماءِ في هجومٍ مباغت، كان فينغ تزي تسون نائماً في مقصورة يو شيو "اليشم المنقوش" في الحرملك.

تدافع العديد من جنود الاستطلاع إلى القصر حاملين خطاباتٍ رسمية، لكنَّ الحرسَ الإمبراطوري تصدى لهم جميعاً ومنعهم من الدخول، وقاد الجنرال لي أر - الذي أمرَ بإقامةِ حاميةٍ عسكرية عند حوض نهر يي - فريقاً وتغلبوا على العوائق، وخاطروا بحياتهم واقتحموا الحرملك قارعين الطبول.

استيقظ فينغ تزي تسون من نومه أخيراً على وقع الأقدام المضطربة وقرع الطبول السريع، وكانت الجملةُ الأولى التي قالها بعد استيقاظه إلى ممثلةِ أوبرا تجلسُ قربَ سريره:

ـ هل هطل المطرُ من جديد؟

عرف فينغ تزي تسون بعد طلوع الصباح سببَ هذه الجلبة: غزا وو دا

تشيو الحدود، وتقدَّمَ بلا مقاومة، كما وصل الجيشُ الطليعي إلى حوض نهر يي وسيطرَ على حصن مدفعية جبال شو يانغ.

حكم فينغ تزي تسون البلادَ لما يزيد عن ثلاثين عاماً، مواجهاً الأخطارَ برَزانَة، وقد تأثر كل وزرائه القريبين والحرس الإمبراطوري بطبعه الهادئ ورباطةِ جأشه. كان الأمرُ الأولُ الذي أصدره إلى صفوف الضباط العسكريين والوزراء الراكعين أمام المقصورة هو القبض على هذا الجنرال الطائش وإعدامه بتقطيعه إرباً. كان لي أر شخصاً مستقيماً، شجاعاً وماهراً في المعارك، وحقق مآثرَ حربية، لكنه حافظَ بالكادِ على اتزانه في اللحظةِ الحاسمة؛ فهو لم يتحَدّ الحرسَ الإمبراطوري فحسب، بل اقتحم القصرَ في جوف الليل قارعاً الطبول، ووقف أمام المقصورة يهتف ويصرخ كطفلٍ أخرق، وكاد يمرضُ من شدةِ الخوف.

عمَّ صمتٌ مطبقٌ أرجاءَ القصر الإمبراطوري، وكان الضباط العسكريون والوزراء في حالةٍ من الرعب والارتباك مثل ذباباتٍ مقطوعةِ الرأس ويتراكضون جيئةً وذهاباً في القصر. لم يُظهر فينغ تزي تسون أيَّ هلعٍ مفرطٍ بصفته الإمبراطور؛ فلم ينسَ أن يطعم ببغاءَه المحبب عشيةَ مغادرتِه المقصورة، ثم أخذ حماماً ساخناً في قصرِ اليشم، وذهب إلى معبد الأسلاف وأشعل أعوادَ بخور. لم يُفقده هذا الحشدُ المعادي على الحدود مزاجَه الهادئ.

دُهِشَ الحرسُ الإمبراطوري والوزراء، الذين انتظروا فترةً طويلة، حين خرج فَينغ تزي تسون من باب القصر قبيل منتصف الظهيرة بزيه العسكري: "هل سيقود الإمبراطورُ الجيشَ بنفسه؟" ركع قادة القوات العسكرية واحداً تلو الآخر محاولين إقناعَه بكلِّ الحجج، وبكى عدةُ وزراءٍ كبارِ السن بلا

سبب. استاء فينغ تزي تسون ممَّا يجري، ولدحضِ كلِّ حججهم استشهد بقَصَصِ إمبراطوريّ الأُسَرِ الأولى حين وطأوا أرضَ المعارك للمرةِ الأولى، ثم امتطى حصانَه وانطلق.

قاد فينغ تزي تسون أكثرَ من عشرة آلاف جندي، مضوا طوال الطريق ينفخون في الأبواق ويقرعون الطبول، إلى أن خرجوا من المدينة في كاملِ العُدةِ والعتاد، متجهين غرباً بمحاذاة السفوحِ الجنوبية لجبل شو يانغ. وكان لدى فينغ تزي تسون غايةٌ ما لقيادته الجيشَ بنفسِه هذه المرة. كانت مملكةُ تشو قريبةً للغاية، وقد اقترفت جرائمَ عند الحدود قبل سنتين، وهي في نظره أرضٌ جرداءُ قاحلة، ذاتُ مواردَ شحيحة، تنتشر في شتائها مجاعاتٌ قاسية، وقد عبر وو دا تشيو بجيشه عدةَ مرَّاتٍ من أجل أن يحصل فقط على المأكل والمشرب ليعينهم على تخطِّي الشتاء، وهكذا فإنَّ غزوه هذه المرة لم يكن استثناءً. وعقد فينغ تزي تسون العزم على أن يتقدم إلى الأمام بنفسه ويرى ماذا سيقولُ هؤلاء الهمج وربما يكون بوسعه مساومتهم.

كان النهرُ الواسعُ يتدفقُ شرقاً في مجراه المُتَعَرِج، ورياحٌ باردةٌ تهبُّ على مياهه، وكان الجيشان يتواجهان فيما النهرُ يفصلُ بينهما، وكلٌّ يشدٌّ قوسَه. كان فينغ تزي تسون محاطاً بالمئاتِ من الجيشِ الإمبراطوري، وأصابه رذاذُ الماءِ الباردِ بعدةِ رجفات.

تعالى صوتُ قرعِ طبولٍ حثيثٍ من بين قوات وو دا تشيو، وتقدم القائد الأعلى بجواده إلى الجبهة، وبعد أن انحنى وقدَّمَ التحيةَ ألقى الكلمة الأولى. كان حديثه مشوباً بلهجة قومية مان الغريبة الفجة، وبدا وقعُها غيرَ مريحٍ للسمع ومزعجاً، على أنَّ فينغ تزي تسون فهمَ بعد الترجمة مضمونَ الكلمة، قال القائدُ الأعلى:

ـ كان إمبراطورُ بلادي يصطادُ في الخريف وتخطَّى حدودَ بلادِكم الجميلة عن طريق الخطأ، وقد سمعتُ عن شجاعةِ جنود قوات تسانغ خاي "مملكة البحار"، وكفاءتِهم في استخدام الأسلحة من أقواسٍ وسهامٍ وبنادقَ وخناجر، وأنَّ تعبئةَ الجيوشِ أعجوبةٌ لم تُرَ من قبل، واليوم هي فرصةٌ قيمةٌ من السماء لأنْ نتبادل خبراتنا عند نهر يي، وإن لم يرفض جلالتُك مطالبي، فلنتبارز، ولن يصيبنا الحزنُ إذا خسرنا.

ما أن انتهى القائدُ الأعلى من كلمته، حتى رأى فينغ تزي تسون وزيرَ الحربيةِ العجوز وقد ترجل عن حصانه وسار مرتجفاً إلى ضفةِ النهر وردَّ وكأنَّه يسردُ من الذاكرة.

كان هذا الوزيرُ مفوَّهاً بليغاً، لكنَّه يحب التباهي بالكلام المنمق. استمرت كلمتُه الطويلةُ المعقَّدة نحو أكثر من ساعة، وفي النهاية ختمَ حديثه قائلاً:

ـ لقد قطعَ جيشُكم آلافَ الأميال ليستعرضَ قوتَه، وجيشنا كان يتطلعُ إلى ذلك منذ سنواتٍ عديدة. والزمنُ الآن لا ينتظرُ أحداً، فإن كان مناسباً لتفتحوا أقواسَكم ولتبدأ المعركة.

بدت تلك المراسمُ المثيرةُ للاشمئزاز كأنَّها بروفة، ومثاراً للسخرية. كان فينغ تزي تسون على درايةٍ بصفته الإمبراطور أن كلمات وزير الحربية المهذبة والمتواضعة تضمرُ نيةَ القتل: فمَن يعبر النهرَ أولاً من الجيشين سيلقى حتفَه بلا شك.

ظلَّ فينغ تزي تسون واقفاً بثباتٍ مع جيشِه عند النهر إلى أن غابت الشمس ولم يحرك الطرفان أيَّ سلاح. وفي النهاية أصدرَ أمراً بأن تقيم القواتُ معسكراً وتربض عند نهر يي والتفت عائداً أدراجه.

لم يعقد فينغ تزي تسون اجتماعاً مثل السابق عندما عاد إلى المدينة، بل ذهب إلى الحرملك بمفرده وأغلق الباب وجلس يفكِّرُ متجاهلاً جميعَ الوزراءِ والضباطِ العسكريين. على أنَّ الوزراءَ الكبارَ رأوا هدوءَ الإمبراطور المفرط إزاء الكارثة التي تمرُّ بها البلاد وغزوَ حدودِها غريباً، لكنَّهم لم يقتحموا عزلته، بل ظلُّوا مجتمعين في قاعة شيان وو "السلحفاة" وقضوا ليلةً بلا نوم. ولم يكن اجتماع هؤلاء الوزراء الكبار ونقاشاتهم الحادة نابعاً إلَّا من شعورهم بالملل بدرجةٍ ما. لم يكن باستطاعتهم نفضُ أيديهم من الحرب ومواجهةُ الأمر بغيرِ مبالاة، أو أن يحلوا محلَّ الإمبراطور في وضع استراتيجيات وخطط الحرب، لذا لم يكن بوسعهم إلَّا الانتظار. كان الموظفون المدنيون أقلَّ قلقاً وجزعاً وهلعاً من الضباط، إذ كان معظمهم بارعين في "شيوان شيوي"[19] وماهرين في المنطق والحُجَج، وبوسعهم أن يقدموا حجةً شديدةَ الغرابة كما يحلو لهم ويثبتوها. حين يتحدث الضباط عن الاحتمالات المختلفة لهزيمةِ البلاد وضياع الوطن، يسخر الموظفون من قلقهم المفرط، إذ يرون أنَّ اليومَ الذي سيحتلُ فيه العدو البلاد، هو اليومُ ذاتُه الذي سيأخذهم جيشنا أسرى، هكذا كان دحضاً بسيطاً للحجة. وإلى حدٍّ ما، لم يكن ضياعُ الأرض أمراً سيئاً، لأنَّ أيَّ أرضٍ ستجدُ دائماً مَن يزرعها وينميها، بصرف النظر عمَّن سيحرثُ الأرضَ بالمحراث.

كان ثمة شخصٌ ظلَّ صامتاً طوال جدالهم واختلاف آرائهم، وهو ابنه تزي جين. كان منكمشاً في زاوية الجدار المظلمة ينصتُ بتركيز، وعلى وجهه تظهرُ علاماتُ الحيرة بين حينٍ وآخر، إلى أن ترك مقعده بهدوءٍ عند

(19) ـ مذهب فلسفي في الصين القديمة.

الفجر، وغادر قاعةَ شيان وو إلى الحرملك. عَبَرَ ردهاتِ وجدرانَ القصر ووصل إلى والده بدون أي عوائق. في تلك الأثناء كسا صقيعُ ما قبل الفجر الكثيف أشجارَ القيقب أمام المقصورةِ ببياضٍ شاحب، وصوتُ تسرُّبِ الماءِ الذي يكادُ يُسمع لا يزالُ يُرَجِّعُ صداه في الهواء. كان فينغ تزي تسون متكئاً على النافذة ينظر إلى مشهدِ شقشقةِ النهار، وكأنَّه ينتظرُ بقلقٍ وصولَ شخصٍ ما.

اقتربت خطواتُ ولي العهد المألوفة، فالتَفَت فينغ تزي تسون.

سأله بعدم اهتمام: "عمَّ يتحدثون في القاعة؟".

ردَّ ولي العهد بمراوغة: "إنَّهم حفنةٌ من الأغبياء".

أزعجه أسلوب تزي جين. كان في العادةِ قليلَ الكلام، ومراوغاً حتى إن تفوَّه بجملةٍ أو جملتين عرضاً، وكأنَّه يقصدُ عن عمدٍ ألَّا يعرف أحدٌ ما يفكِّرُ فيه.

ـ ماذا قال وزيرُ المراسم؟

رمقه تزي جين بنظرةٍ وقال:

ـ إنَّه مهرج.

هذه الإجابةُ التي توقعها فينغ تزي تسون، فقد كانت البلاهةُ والبلادةُ الظاهرةُ على ابنه تخفي دهاءَه بفعالية. فكَّرَ فينغ تزي تسون في الأمر لبعض الوقت، ثم غيَّر الموضوع.

ـ ما أخبارُ جيش مملكة تشو؟

هَذه المرَّةُ تلقَّى فينغ تزي تسون إجابةً مفصلة. أخبره وليُّ العهد أنَّ وو دا تشيو استغلَّ ستارَ الليلِ وأسرعَ في عبور نهر يي، وحُوصرت العاصمة - تلك البقعةُ الصغيرةُ من الأرض - حصاراً شاملاً.

لوَّح فينغ تزي تسون بنفاد صبر، فانحنى الأخيرُ وانصرف.

وبدا وكأنَّ فينغ تزي تسون منذ اللحظةِ التي اندلعت فيها هذه الكارثة قد فكَّرَ مسبقاً في طرقٍ لمواجهتها، ولم تكن عزلته البارحةَ في الحرملك إلَّا حيلةً لتضليلهم، لأنَّه في حقيقةِ الأمر قد أرسل مستشاره بخطابٍ سريٍّ إلى خيمة وو دا تشيو، وحمولةٍ تزيدُ عن مائةِ تشانغ من القطن والحرير، وثمانين حصاناً تستطيعُ عبورَ البحر، وألفي عملةٍ فضيَّة.

وصلَ المبعوثُ مع بزوغ الفجر إلى المقصورةِ مغطّىً بالوحل ومنهكاً من الرحلة. اتضح أنَّ وو دا تشيو رجلٌ نبيل، فحسب تقرير المبعوث، لم يقبل الهدايا المرسلة كلّها وأعادها شاكراً، كما أرسل معه قنينةَ نشوقٍ فاخرةٍ متقنةِ الصنع. ويبدو أنَّ وو دا تشيو ليس شخصاً عادياً، فلن تستطيع بضعُ عملاتٍ فضيَّة أن تصرفَه وجيشَه. شَعرَ فينغ تزي تسون بالإحباط والقلق عند تفكيره في هذه النقطة.

دخل وزيرُ الحربيةِ بخطواتٍ عرجاء لتقديم تقرير أحوال الجيش ما أن رحلَ المبعوث، وحسب التقرير فقد اجتاز جيشُ العدو الخطوطَ الدفاعيةَ عند النهر واقتحمَ المدينة، ورغم أنَّ الجيشَ عانى هزيمةً صغيرة، لكنّه حقَّقَ مكاسبَ كبيرة، ثم أحصى له ببهجةٍ الغنائمَ التي حصلوا عليها من مائة تشانغ من القطن والحرير، وثمانين حصاناً وألفي قطعة من الفضةِ الخالصة.

شَعَر فينغ تزي تسون على الفور بدُوارٍ ومزيجٍ من الخزي والحزن.

الهديةُ الثانيةُ التي أُرسلَت إلى وو دا تشيو كانت مجموعةً من النساء الحسناوات اللواتي تم انتقاؤهن بعنايةٍ من بين مغنيات ومحظيات القصر

السادس. كنَّ رشيقاتِ القوام وطباعهنَّ ساحرة. أُمرَت هاتيكَ النساء الثرثارات بالقدومِ إلى المقصورة حيث اصطففن في نور الشمس ليلقي فينغ تزي تسون عليهن نظرةً أخرى. أدرك بحزنٍ شديدٍ أمام هؤلاء النساء الجميلات الأصحاء المتأنقات الوافراتِ الصحة، أنَّه لم يكن لديه أيُّ فكرةٍ عن وجودهن منذ سنواتٍ عديدة رغم أنَّه الإمبراطور. كانت معظم المحظيات والخادمات في هذا الجانب من القصر ذاويات، تبدو ملامحُهُنَّ كرمادِ الورق. أحسَّ فينغ تزي تسون بوحدةٍ عميقة نابعة من سنواتِ عمره الضائعة، وحَزنَ لمقابلته المتأخرةِ لهاتيكَ النساء. لابد أنَّ كل هذا من حِيَلِ وزير المراسم. كلَّما فكَّر كيف تراخى هذا الوزيرُ الحصيف الماكر عن أداءِ واجبه في هذه المسألةِ الحاسمة شَعرَ بالغضب الشديد، إذ أظهرَ هذا الأمرُ من ناحيةٍ فشلَ فينغ تزي تسون الذي لا يجرؤ على الاعترافِ به، وكشفَ له من ناحيةٍ أخرى عن حياةِ القصر الحقيقية. كان يظنُّ أنَّه يحكمُ كلَّ شيءٍ في هذه البلاد، لكنَّ الأمرَ كان عكسَ ذلك.

حين عادت النساءِ في زينتهن الكاملةِ بعد ثلاثةِ أيامٍ كحَمَاماتٍ إلى المقصورة، كان فينغ تزي تسون ينتظرُ في الحديقةِ نافدَ الصبر، وتنبأً من الحزن الشديد الظاهر على وجه المبعوث بكلِّ ما جرى. حملَ له المبعوثُ رسالةً بخط وو دا تشيو، كتب فيها هذا الوغدُ الشمالي، أنَّه معجبٌ بشدة بحسِّ فكاهةِ إمبراطور تسانغ خاي، وأنَّه قضى ليلةً ساحرةً برفقة هؤلاءِ النساءِ الصافياتِ كاليشم، وأُنهِكَ من نصفِهن، فاستدعى رئيسَ القواتِ العسَكريةِ إلى خيمته وطلب منه صرف الباقيات... أمَّا فيما يخصُّ التراجعَ والانسحاب، فهو يرى أنَّ الوقتَ غيرُ مُواتٍ الآن، وإن سار كلُّ شيءٍ على ما يرام، فسيزورُ جلالةَ الإمبراطور في قصره بعد شهرٍ للتشاور حول هذا الأمر.

تجمَّع الوزراء والضبّاط العسكريّون كلّهم خارج بوابةِ القصر في الصباح الباكر لمهرجان التاسع المزدوج، كانوا راكعين في الريحِ الباردةِ بانتظارِ الإمبراطور لعقدِ الديوان. جاء فينغ تزي تسون الذي قضى ليلةً لم يذق فيها طعمَ النومِ محاطاً بالخدم إلى قاعةِ العرش ما إن أشرقَ الصباح.

أدرك الوزراءُ مذعورين بأنَّ تضييقَ الغازِين وضغطهما لأيامٍ متتالية أصاب وجهه بالشحوب وأنهكه، وسرى الهزال في جسده رغم محاولاته الجاهدة التحلّي بالهدوء. جلس فينغ تزي تسون في قاعةِ العرش، وبدا جسدُه النحيلُ في الفجر الغائم كقطعةِ ملابسَ خاويةٍ تتمايل. جاء كلامه مكرراً غيرَ مترابط، وكأنَّه يعاني ألمَ مرضٍ ما، فلم يسع الوزراء إلَّا حبْس أنفاسِهم في تركيزٍ شديد ومحاولة تخمين نواياه. وهكذا سُلِّمَ مرسومُ الإمبراطور بعد أن شذّبه ونقّحه المؤرّخون إلى الوزراء والموظفين الأقلّ درجة، الذين سرعان ما نشروا الأجزاءَ الأساسيةَ شفوياً بين العامّة.

كان مفادُ مرسومِ الإمبراطور كالتالي: "أرسلت مملكةُ تشو الغربيةُ قواتٍ يبلغ عددها مائةَ ألفِ جندي، وقد حاصروا العاصمة. ورغم أنَّ جيشنا قويُّ العدةِ والعتاد، غزيرُ الموارد من مأكلٍ ومشرب، فلن ينتصر إذا حاولنا تحريرَ المدينة، وسيهلكُ الشعبُ ويستحيلُ كلُّ اليشمِ إلى رماد. ولا ترغب مملكةُ تشو إلَّا أرضي، فإن تنازلت عن تسانغ خاي ستتوقفُ الحرب. لهذا قررتُ أنا الإمبراطورُ التخلي عن تسانغ خاي، والذهابَ إلى لانتيان لرعي الغنم. لتفكّروا بتمعنٍ وتتخذوا قراركم فيما إذا كنتم ستتبعونني أو تظلُّوا هنا وتختاروا إمبراطوراً جديداً للحكم".

تساقطت أمطارُ الخريفِ بغزارةٍ بعد يومين، وكانت السماءُ معتمة. ظهر عشراتُ الأشخاص والخيول في الطريق الرئيس الموحل المتعرج شرقَ المدينة

متجهةً صوب لانتيان البعيدة. كان فينغ تزي تسون يتنكَّرُ في زي مغنٍ للبلاط الملكي، ويختلطُ في الحشد العظيم، وحين التفت متأملاً العاصمة، ورأى من بعيدٍ جدرانَ القصر الصفراء تختفي ببطءٍ في المطر، غمرته دفقةٌ من الكآبةِ والضياع.

لم تُذكَر هذه الهجرةُ العظيمةُ لاحقاً في كتبِ التاريخ الصيني الكلاسيكية، وقد ندَّد الحكماءُ الكونفوشيون بهذا الاستسلام الشائن، بينما أثنى عليه لاو تزي وجوانغ تجو ثناءً عظيماً. ولم يكن ثمة ذِكْرٌ لتفاصيل حياة فينغ تزي تسون في لانتيان فيما بعد، وإن ذُكِر، يكونُ عابراً، مختصراً.

كان فينغ تزي تسون يجلس وحيداً في ظهيرةٍ مشرقةٍ في غرفة المكتب في قصرٍ مؤقت، يعزف على آلةِ تشين الوترية ويغني، وبدا مهموماً. اقترب منه بهدوءٍ بستانيٌّ عمل سابقاً في القصر. أحسَّ فينغ تزي تسون برغبةٍ في الكتابة بعد أن قطع وترين، فبسط له البستانيُّ ورقَ الحرير ودفع له بالمحبرة. تنهدَّ فينغ تزي تسون تنهيدةً عميقةً وكتب رباعيةً من بينها سطرٌ يفيضُ الشجنُ من ثناياه: عميقاً تحت السماءِ اللازورديةِ الشاسعة، حيث ينعكسُ نورُ القمرِ اللامع، ذرفت اللآلئُ دموعَها/ في الجبالِ الفيروزية، في ثنايا نورِ الشمسِ الدافئ، يُطلقُ اليشمُ دخاناً.

شرع البستانيُّ في مواساته ونصحه بلطفٍ عندما رآه مغتمَّاً. وحسبَ رأيه، فإنّ الإمبراطور لم يخسر ثقةَ الناس رغم تنازله عن تسانغ خاي، فقد هاجرَ الكثيرُ منهم إلى لانتيان، ويعملون الآن في الرعي واستخراج اليشم، ويعيشون في سلامٍ وطمأنينة وهذا في الواقع حظٌّ عظيمٌ للدولة.

رفع فينغ تزي تسون رأسَه ونظر إليه متجاهلاً مواساته، ثم سأله بعدم

اكتراث:

ـ هل رأيت تزي جين هذه الأيام؟

ـ لا.

اتجهت نظراتُه إلى خارج النافذة وقال وكأنَّه يُحدِّثُ نفسَه:

ـ إن كان تخميني صحيحاً، فإنَّه قادمٌ في هذه اللحظةِ إلى القصرِ بسيفه.

ـ وما سببُ مجيئه؟

ـ سيأتي لقتلي.

ـ ولِمَ يريد وليُّ العهدِ إيذاءَ جلالتك؟

ـ فكِّر في الأمر، كان هناك أكثرُ من مائتي ألف جندي من جيش العدو يحاصرون البلاد، ولم أُعطِ أمراً هجوم لقواتنا، وانسحبتُ إلى لانتيان، وهذا بالنسبة له عارٌ كبير، لذلك لديه سبب منطقيٌّ لقتلي.

ـ ولِمَ لا تتخذ جلالتك الخطوةَ الأولى لتثبتَ أنك الأقوى، وتعترض طريقه؟

اكفهرَّ وجهُه بسحابةٍ داكنةٍ وقال: "ليس هناك وقت. لقد استهنت به، كان يتظاهرُ بالبلادةِ والغباءِ في القصر لأكثر من عشر سنوات."

لم يتفوَّه البستانيُّ بكلمةٍ أخرى، وتبادل هو وسيده النظرات وبكيا، ثم قال بصوتٍ عالٍ وواضحٍ كأنَّه تذكَّرَ أمراً ما فجأة:

ـ كما يرى الشخصُ النكرةُ الذي هو أنا، أقترح أن تستغل جلالتك عدمَ وصولِ ولي العهد بعد، وتهرب وتعيش في عزلةٍ في وديانِ الجبلِ العميقة، وتجلس مطمئناً مسترخياً عند شاطئ النهر وتتأمل السحب، أو تتجول بحرية.

قاطعه فينغ تسون قائلاً:

ـ فكَّرتُ في هذا الأمر من قبل، لكنَّني حلمت حلماً البارحة وحين فكَّرت فيه بدا وكأنَّه نذيرُ شؤم.

ردَّ البستاني بنبرةٍ لطيفة:

ـ لديَّ بعضُ المعرفةِ في تفسيرِ الأحلام، وإن لم أكن فظّاً وسمحت لي جلالتك فاحكِ لي حلمك.

تردد فينغ تزي تسون للحظات ثم بدأ في سردِ حلمه، لكنَّه ما لبث أن سمعَ صوتَ السيوف يرنُّ في الهواءِ الراكد. نهض على الفور ونظراتُه معلَّقةٌ خارجَ النافذة، ورأى تزي جين قادماً بسرعةٍ صوبَ القصر على طولِ دربٍ صغيرٍ في حقل القمح يحملُ سيفَه والـ دينغ. كان وقتَ الغروب والشمسُ ترخي أشعتها الحمراءَ على قطيع الخراف على التلة، وحفيفُ الرياح يرنُّ بين الأشجار، وبالكاد يُسمَعُ ثغاءُ الحملان.

أمَّا عن الحلم الذي حكاه للبستانيِّ فكان كالتالي:

في الربيع، وبعد ثلاثِ سنواتٍ من حياةِ العزلة عند ضفةِ النهر الضحلة، سمع فينغ تزي تسون أنَّ امرأةً شابة كانت تأتي دائماً إلى النهر لجلبِ الماء ماتت متأثرةً بمرضِها. وأقيمت جنازتُها في اليوم الماطر الذي سبق عيد تشينغ مينغ. وفي مساءِ ذلك اليوم، كان فينغ تزي تسون يستلقي على سريره مُنصتاً إلى صوت الأمطار الربيعية خارج النافذة، عاجزاً عن النوم. ظهرَ طيفُ المرأة المبهرج أمام عينيه ولم يتلاش، وألقى في نفسِه الساكنةَ الاضطرابَ والذعر، وبدا وكأنَّه سمع بعد منتصف الليل المرأةَ تنادي باسمه، فخرج من المنزلَ بلا وعي، وسار عبرَ الأرضِ البرية، عبرَ حقولِ القمحِ الزرقاءِ القاتمة، إلى المقبرة...

يارا المصري

مترجمة مصرية درست اللغة الصينية في كلية الألسن جامعة عين شمس في القاهرة وفي جامعة شاندونغ للمعلمين في مدينة جينان بالصين، نشرت قصصاً ونصوصاً شعرية ودراسات مترجمة عن اللغة الصينية إلى اللغة العربية في مجلات وصحف منها: مجلة العربي، جريدة الأهرام، الملحق الثقافي لجريدة الاتحاد، أخبار الأدب، وغيرها من الدوريات الثقافية العربية. شاركت في مؤتمر المترجمين لترجمة الأعمال الأدبية الصينية الذي عقد في الصين أغسطس 2016 وأغسطس 2018، كما شاركت في ورشة للكتابة والترجمة في أكاديمية لوشون للأدب في بكين نوفمبر - ديسمبر 2017. تجيد اللغات العربية والانجليزية والصينية. فائزة بالمركز الأول في مسابقة جريدة أخبار الأدب للشباب في الترجمة 2016 عن ترجمتها لرواية "الذواقة" للكاتب الصيني "لو وين فو". حائزة على جائزة الإسهام المتميز في الكتاب الصيني العام 2019. فائزة بالمركز الأول لجائزة الشيخ حمد للترجمة والتفاهم الدولي، الدورة السابعة 2021 في الترجمة من الصينية إلى العربية.

أعمال منشورة:

ـ العظام الراكضة

المؤلفة: آشه (مجموعة قصصية) بيت الحكمة للنشر والإعلام 2015.

ـ الفرار في عام 1934

المؤلف: سوتونغ (رواية) دار الصدى/ مجلة دبي الثقافية، الطبعة الأولى 2015.
مسعى للنشر والتوزيع، الطبعة الثانية 2017.

ـ رياح الشمال

المؤلفة: بينغ يوان (مجموعة قصصية) ـ دار الحكمة للإعلام والنشر 2016.

ـ الذواقة

المؤلف: الكاتب الراحل لو وين فو (رواية) ـ سلسلة الجوائز، الهيئة المصرية العامة للكتاب 2016.

ـ أحتضن نمراً أبيض وأعبرُ المحيط

المؤلف: الشاعر الراحل خاي زي (مختارات شعرية) ـ دار النسيم بالتعاون مع مجموعة النشر التابعة لجامعة بكين للمعلمين 2017.

- زوجات ومحظيات

المؤلف: سوتونغ (رواية) ـ مسعى للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى 2017.

- حياة أخرى للنساء

المؤلف: سوتونغ (ثلاث روايات قصيرة) ـ مسعى للنشر والتوزيع، الطبعة الأولى 2018.

- معابد معتمة

المؤلف: شي تشوان (مختارات شعرية) ـ مسعى للنشر والتوزيع بالتعاون مع دار النشر التابعة لجامعة بكين للمعلمين، الطبعة الأولى 2018.

- شيء اسمه حجر يليه كوكب مصر

المؤلف: أويانغ جيانغ خي (مختارات شعرية) ـ مسعى للنشر والتوزيع بالتعاون مع دار النشر التابعة لجامعة بكين للمعلمين، الطبعة الأولى 2019.

- الحبُّ في القرن الجديد

المؤلفة: تسان شييه (رواية). دار سرد ـ الطبعة الأولى 2021.

غِي فِيَ (1964-) كاتب صينيّ يُعدّ من بين أهم الكتّاب التجريبيّين والمؤسسين لما يُعرف بتيار «أدب الطليعة» الذي ظهر في ثمانينيّات القرن الماضي بعد انتهاء الثورة الثقافية في الصين، وأُطلق عليه لقب «بورخيس الصين». بعد حصوله على الدكتوراه في الأدب العام 2000، عمل أستاذًا لتدريس الكتابة، والسرد، والسينما الأوروبية وغيرها في قسم اللغة الصينية في جامعة تشينهوا. نال جائزة «Lu Xun» الأدبية الصينية عام 2014، وجائزة «Mao Dun» عام 2015. ومن أهم رواياته: «عباءةُ التخفّي»، و«نسيمُ الربيع»، و«ثلاثيةُ جنوبِ اليانغستي».

يـارا المـصري، مترجمـة مـن مـصر. درسـت اللغـة الصينيـة في كليـة الألسـن جامعـة عين شـمس في القاهـرة، وفي جامعـة شـاندونغ للمعلمين في مدينة جينـان بالصين. شـاركت في مؤتمر المترجمين لترجمة الأعمـال الأدبيـة الصينيـة الـذي عقـد في الصـين أغسـطس 2016 وأغسـطس 2018، كمـا شـاركت في ورشـة للكتابـة والترجمـة في أكاديميـة لوشـون لـلأدب في بكـين نوفمـبر - ديسـمبر 2017. نالـت جائـزة الإسهـام المتميـز في الكتـاب الصيـني العـام 2019، وجائـزة الشـيخ حمـد للترجمـة والتفاهـم الدولي عـام 2021 عـن ترجمـة روايـة تسـان شُـيِّيه «الحب في القـرن الجديـد» . ومـن أهـم ترجماتها: «شيء اسـمه حجـر، يليـه: كـوكـب مصر» للشـاعر أويانغ جيانغ، و«زوجـات ومحظيـات» للـروائي سـوتونغ، و«معابـد معتمـة» للشـاعر شي تشـوان.

غِي فِيْ (1964-) كاتب صينيّ يُعدّ من بين أهم الكتّاب التجريبيّين والمؤسسين لما يُعرف بتيار «أدب الطليعة» الذي ظهر في ثمانينيّات القرن الماضي بعد انتهاء الثورة الثقافية في الصين، وأُطلق عليه لقب «بورخيس الصين». تقدّمه المترجمة يارا المصري إلى القارئ العربي في ترجمة هي الأولى، من خلال خمس قصص جديرة بالدّرس، تنتظمها تجريبيّة عالية واهتمامٌ بالزّمن عنصرًا هو أساس القصّ. يهتمّ الكاتب «غِي فِيْ» بالزمن في قصصه القصيرة هذه مرتبطًا بالإنسان ذاته دون تجريد، الإنسان محاصَرًا بنفسه وأحلامه وأحداث حياته، وبُعده المكاني وذاكرته، وكتابته حين تكون تجليًّا للزمن الإبداعي، الذي وإن كان إنشاءً في اللغة، فإنَّه يكشف عمَّا نريده ونحبه في الأدب، وهو ما يقوله الكاتب في إحدى مقابلاته: «نتحدثُ في العادة عن الأبعادِ المكانيةِ الثلاثة، بالإضافةِ إلى بُعدٍ زمني واحد، إذَن هي أربعةُ أبعاد. كانت ثمة فكرة تراودني لفترة طويلة، وهي أنَّ البُعدَ الأرجحَ الذي يمنحنا مغزىً هو البعدُ الزمني، ولا أعني بذلك أنَّ البُعد المكاني لا أهمية له، بالطبع له أهمية، لأننا في حالةٍ مستمرة من الانتصارِ على الطبيعة، في حالة مستمرة من ابتكارِ الأشياء، وفي حالة مستمرة من إطالةِ بقائنا. لذا، في حدود كهذه، فإنّ كل هذه الجهود هي تغيّرات زمنية، على أنّ هذه التغيرات في الماضي كانت تخدمُ شيئاً ما، كمعنى الإنسانِ على سبيلِ المثال».

ISBN 978-9948-812-79-1

روايات
REWAYAT

Cover design © Ahmed Alsabbagh